العمارة في العصر الإسلامي

مدخل تاريخي

قبيل بزوغ فجر الإسلام كانت الجزيرة العربية تعيش فراغاً سياسياً. ولعدم وجود دولة مركزية، تدهورت أحوالها بعد أن عاشت ظروفاً صعبة، كان من بينها اختلال الحالة الأمنية التي سببتها الحروب الكثيرة والطويلة بين القبائل العربية. فعمت بسبب ذلك الفوضى، وتدهورت الحالة الاقتصادية إلى أدنى مستوياتها، كما تحولت طرق التجارة من الداخل إلى الخارج، بعد أن كانت تمر عبر صحاريها، وتمثل رافداً رئيسياً للاستقرار السياسي والاقتصادي والحضاري فيها. ومع أن نشاطاً تجارياً بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها كان موجوداً قبيل الإسلام، إلا أنه لم يكن على المستوى نفسه الذي كان عليه خلال فترات ازدهار الممالك العربية. كما أن الثقافة المعمارية لدى عرب الجزيرة كانت في حال جيدة خاصة في المدن التي كانت قائمة حينذاك، مثل مكة ويثرب والطائف وجرش والأخدود بنجران وغيرها.

وعندما جاء الدين الإسلامي أزال أسباب النزاعات وآخى بين القبائل، ودعا إلى مبادئ جديدة كان لها أثر أساسي في إعادة الاستقرار وبدء مرحلة جديدة من الازدهار. ولم تمضِ سنوات قليلة حتى أصبحت تلك المبادئ أساساً لنظام حضاري متطور ومركب، ما زلنا نعيش في ظل كثير من معطياته. وكان من تلك المعطيات الحضارية، العمارة بمفهومها الشامل هندسة وتصميما.

وفي عهد الرسول ﷺ، كانت العمارة تتسم بالبساطة في تصميمها وموادها، متوازية في ذلك مع المستوى الاقتصادي لتلك المرحلة. ومع ذلك فقد كان للبناء والعمارة في ذلك الوقت نصيب من التطور والإضافة، فكان من

الابتكارات في التسمية والوظيفة المسجد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه ليكون مكاناً للعبادة، ومقراً للاجتماع والتشاور والتوجيه والإعلام. وقد أصبح المسجد فيما بعد رمزاً للمدن الإسلامية وللثقافة الإسلامية، وللبناء الذي نشأت فيه معظم الابتكارات في فن العمارة الإسلامية.

وما إن بدأت الأحوال الاقتصادية تزدهر، ابتداءً من عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب #، حتى بدأت التغيرات تظهر على العمارة الإسلامية في الشكل والمضمون. وكان المعماريون المسلمون في تلك المرحلة المبكرة يمارسون البناء وفنونه بناء على ثقافة وتقاليد متوارثة من الفترات السابقة للإسلام، إلا أن الدين الإسلامي أدخل عناصر إضافية جديدة في تصميم المباني تتناسب مع المعتقدات الجديدة ومتطلبات المجتمع الجديد.

ومنذ صدر الإسلام وعقب الفتوحات التي تمت في مناطق الحضارات الواقعة إلى الشمال، شهدت الجزيرة العربية اتصالاً كبيراً وجوهرياً بالبلدان التي كانت تمثل مسرحاً لآخر ما توصلت إليه الحضارة الإنسانية آنذاك. وقد كانت تلك البلدان في ذلك العصر هي الأكثر تطوراً في مختلف المجالات.

وبعد توسع الدولة الإسلامية، ودخول الناس أفواجاً في دين الله، توالت قوافل الحجاج قادمة من تلك البلاد المفتوحة متوجهة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان نتيجة ذلك حدوث تلاقح فكري بين شعوب العالم الإسلامي. فكانت كل جماعة تأخذ وتعطي، تؤثر وتتأثر، فحدث امتزاج وتزاوج ثقافي منقطع النظير. وكان لذلك تأثير إيجابي في جميع المجالات بما فيها مجال العمارة. وقد كانت تلك الظروف سبباً في تمازج الفكرة والعنصر بين عمائر العالم الإسلامي قاطبة، وما زالت الشواهد الشاخصة تبرهن على ذلك التمازج الفريد. وكان من نتائج هذا الامتزاج انتقال كثير من عناصر الثقافة المعمارية إلى مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، خاصة إلى المدينتين المقدستين وإلى المناطق الحضرية التي لها اتصال مباشر بطرق الحج وخدمات الحجيج.

وخلال القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني، ومع الازدهار الاقتصادي الذي عمّ البلاد الإسلامية، نشطت حركة التعمير في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، خاصة في عهد مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان. وحظيت منطقتا مكة والمدينة، لمكانتهما الدينية،

بالنصيب الأكبر من ذلك الازدهار والاستقرار. وعلى الرغم من بعض القلاقل التي حدثت خلال بداية هذه الفترة في بعض مناطق الجزيرة العربية، كحركة الخوارج وثورة ابن الزبير، إلا أن الاستقرار والازدهار عاد ليظلل هذه البلاد مرة أخرى بعد أن قُضي على تلك الثورات في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان. وأوردت المصادر التاريخية بعض المعلومات التي يمكن أن يستفاد منها في تصور الوضع المعماري في حواضر الجزيرة العربية خلال تلك المرحلة. فقد أشارت تلك المصادر إلى نشاط المجتمعات الزراعية في معظم مناطق هذه البلاد، وأبرزت إلى واجهة الأحداث أسماء لمدن وقرى كانت تمثل حواضر وقرى ازدهرت خلال تلك المرحلة. فبالإضافة إلى مكة والمدينة، ترددت أسماء: جدة والطائف والربذة وفيد وبيشة وتبالة واليمامة والخضرمة وهجر والقطيف والعقير ودارين ودومة الجندل وغيرها. وكانت تلك الأسماء لحواضر مزدهرة اقتصادياً ومعمارياً.

وخلال العصر الذي كانت فيه الجزيرة تابعة بشكل مباشر للخلافة العباسية، مرت الجزيرة العربية بمرحلتين متتاليتين ومختلفتين، في الوقت نفسه، الأولى فترة الازدهار والاستقرار الاقتصادي، وتستمر هذه المرحلة من بداية الدولة العباسية إلى أواسط القرن الثالث الهجري. والمرحلة الثانية تأتي بعد ذلك متزامنة مع أحداث الاضطرابات الأمنية والانقسامات التي عمت مناطق مختلفة من العالم الإسلامي حينذاك. وكان نصيب الجزيرة العربية من هذه الاضطرابات قلاقل وثورات أحدثتها بعض القبائل العربية ضد مصالح الخلافة العباسية في أواسط الجزيرة العربية، ثم توجت تلك الأحداث بثورة القرامطة التي فصلت معظم الجزء الشرقي من الجزيرة العربية عن جسم الدولة العباسية. وتلا ذلك توجيه القرامطة ومن تبعهم من الأعراب ضربات محكمة ضد مصالح الدولة العباسية في بدايات القرن الرابع الهجري. وقد استهدفت بعض تلك الضربات طرق الحج، خاصة طريق الحج الكوفي، أو ما يعرف بدرب زبيدة، ويعد الطريق الرئيسي بين عاصمة الدولة العباسية ومكة المكرمة. وتسبب ذلك في اضطراب الحالة الأمنية في معظم أرجاء الجزيرة العربية مما أثر بشكل مباشر على الاستقرار الاقتصادي الذي أثر بدوره سلباً على جميع المعطيات الحضارية، ومن بينها العمارة وطرز البناء بشكل عام.

وعلى الرغم من قلة الدراسات الآثارية الحديثة التي عُنيت بآثار تلك المرحلة، إلا أن هناك شواهد أثرية معمارية نعرفها اليوم، وترسم لنا صورة شبه كاملة للعمارة الإسلامية المبكرة التي شهدتها المنطقة. ومن تلك الشواهد قصور وحصون وآطام وسدود ما زالت آثار بعضها شاخصة في أطراف المدينة المنورة ومكة المكرمة وفي محافظة الطائف وفي معظم محطات طرق الحج. وقليل منها اكتشف في الواحات الداخلية ومناطق الازدهار الزراعي، أو في موانئ قديمة على ساحل البحر الأحمر أو الخليج العربي. وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من مواقع تلك الفترة التاريخية ما تزال على شكل تلال أثرية تنتظر دورها للتنقيب والدراسة لتصبح في متناول الباحثين والمهتمين. ومن هذه الآثار نستطيع التعرف بشكل دقيق على المستوى الذي بلغه المسلمون من سكان الجزيرة العربية في مجال العمارة وفنونها خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم. وعلى سبيل المثال ذكرت المصادر أربعة وعشرين قصراً في أنحاء متفرقة من المدينة المنورة وحدها.

ومن أهم الآثار المعمارية المكتشفة التي تعود للقرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية آثار مدينة الربذة، التي كشفت الحفائر الأثرية فيها عن أجزاء من نسيج المدينة العمراني وعن بعض مرافقها.

أحد المباني المحصنة – موقع الربذة

ففي الجانب الشمالي الغربي منها، كُشف عن قسم يمثل حياً سكنياً منعزلاً، وثبت بعد دراسة نسيجه العمراني وتحليل المعثورات التي وجدت فيه، ومقارنتها بمعثورات مواقع أخرى، أن هذا القسم من المدينة تعود بداياته إلى أواخر القرن الأول الهجري ويستمر إلى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري. وتمتاز المباني فيه بالبساطة وكبر مساحات الأحواش وقلة عدد الغرف في البيت الواحد، مقارنة بالبيوت التي بدأت تنتشر في أجزاء أخرى من المدينة، ويعود تاريخها إلى ما بعد منتصف القرن الثاني إلى بداية القرن الرابع الهجري.

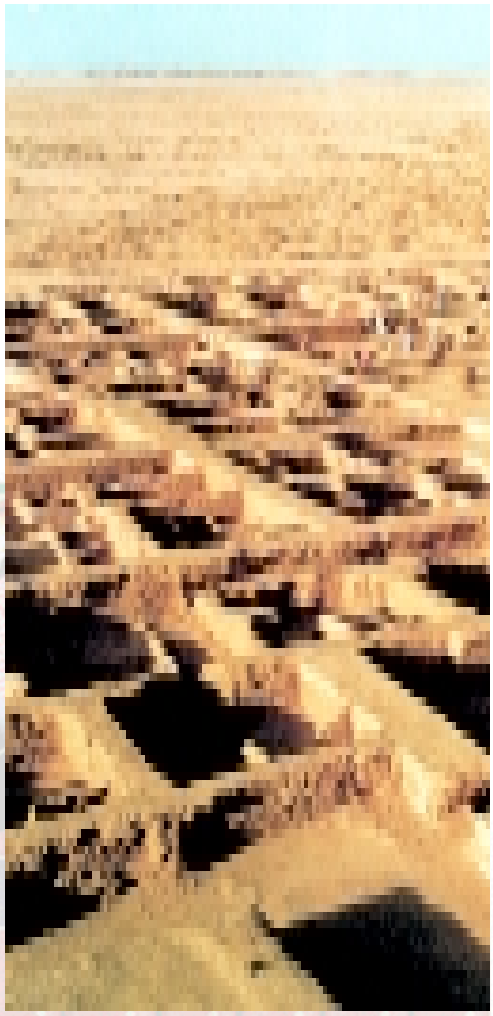

حيّ سكني – مدينة الربذة

وبالإضافة إلى موقع الربذة يمكن الإشارة إلى أن محطات طرق الحج بشكل عام، ودرب زبيدة بشكل خاص، تحتوي على آثار لبرك وقصور ومنازل ما زالت آثار جدران كثير منها تشاهد شاخصة وشامخة في معظم هذه المحطات.

وفي الجزء الشمالي الغربي من المملكة هناك آثار معمارية مهمة على طريقي الحج الشامي والمصري، نذكر منها آثار مدينة الحوراء التي تقع على بعد ١٠كم شمال مدينة أملج، وتحتوي على آثار مبان لمدينة إسلامية كانت مزدهرة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، وفي منطقة القصيم آثار النباج وضرية ورامة. وكذلك هناك آثار معمارية لقصور تعود للعصر الإسلامي المبكر في وادي ذي خُشب الواقع على بعد ستين كيلاً إلى الشمال من المدينة المنورة. وفي وادي القرى آثار المابيات الواقعة إلى الجنوب من مدينة العلا. وقد أظهرت التنقيبات التي أجرتها وكالة الآثار والمتاحف في الموقع دلائل أثرية لمدينة إسلامية كبيرة كانت مزدهرة بالكثير من المنشآت المعمارية والحضارية خلال فترة ازدهار الدولة العباسية. وفي منطقة الرياض عدد من آثار المنشآت المائية، مثل السدود على وادي حنيفة وفروعه، وقنوات المياه في الخرج والأفلاج والأجزاء الشمالية للمدينة القديمة في دومة الجندل وتيماء.

وفي المنطقة الجنوبية من المملكة آثار معمارية يمكن أن يُنسب بعضها إلى فترة صدر الإسلام. ومن أهم المواقع

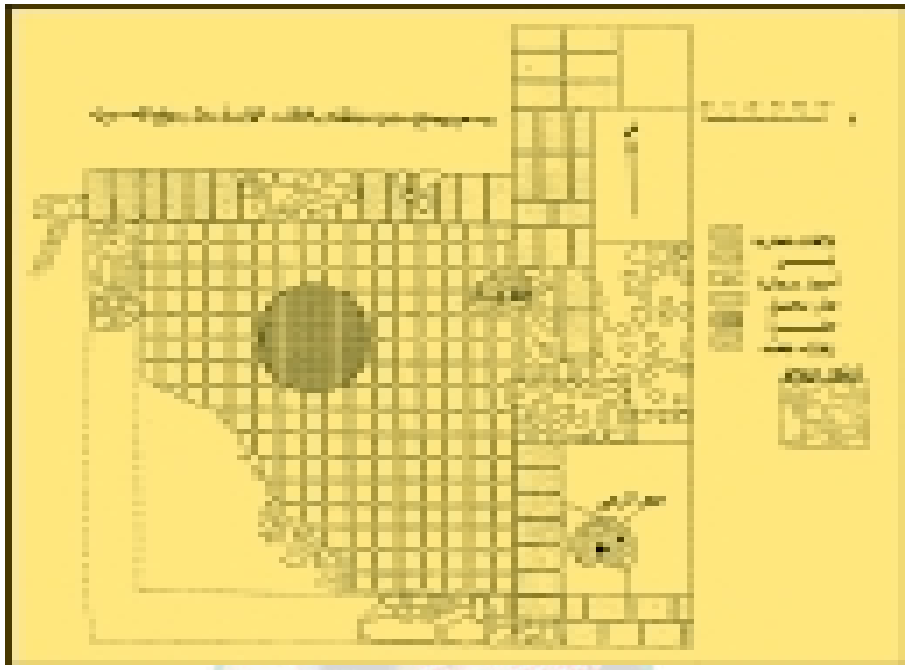

رسم يوضح حجرة في منزل مبلطة ببلاط الآجر – موقع الحوراء

التي تحتوي على آثار معمارية ظاهرة في تلك المنطقة موقع جرش، إلى الجنوب من محافظة خميس مشيط بمنطقة عسير، وكذلك في مواقع قرب مدينة نجران، وفي مواقع إسلامية مبكرة بمنطقة جازان، مثل عثّر، ومواقع في محافظة القنفذة.

أما المباني المكتشفة في المواقع التي ترجع إلى العصر الإسلامي المبكر، فيمكن تصنيفها إلى نوعين رئيسيين، النوع الأول: المباني الضخمة ويتمثل هذا النوع في القصور الكبيرة والمباني العامة، ويندرج تحتها معظم الجوامع وبعض المساجد. وبشكل عام فإن هذا النوع من المباني الضخمة كان يُبنى من قبل الدولة فينفق على بنائه من بيت المال أو يبنيه الخلفاء أو الأمراء أو الولاة أو كبار الشخصيات. ويمتاز هذا النوع بفخامة تصميمه وضخامة حجمه وجودة مواده ودقة أسلوب تنفيذه. ومثل هذه المباني ينفق عليها أموال كثيرة وتستخدم في بنائها مواد قوية، مثل الأحجار المنحوتة والآجر والجص، وتستخدم لتغطيتها الأخشاب الجيدة المجلوبة من مناطق بعيدة، أو الأقبية والقباب؛ لذا فإن الكثير من هذه المباني بقيت صامدة

قصر عباسي مبني بالآجر – المليليح – منطقة المدينة المنورة

ضد عوامل الزمن. وقد اكتشف منها عدد كبير، بعضه يعود للقرون الأولى من الهجرة. وامتازت مباني القرن الأول وبداية الثاني الهجري باستخدام الأحجار والجص وقليل من الآجر مواد أولية لبناء تلك القصور والدور الفخمة، وكانت بعض تلك العمائر تتكون من طابقين أو أكثر.

ومنذ منتصف القرن الثاني الهجري تحول الناس في كثير من المناطق إلى استخدام الآجر في البناء بدلاً من الأحجار، بالإضافة إلى استخدام الجص مونةً وتكْسِيَةً. وكان ذلك التحول تأثراً بالطرز العباسية التي بدأت تظهر في العراق حينذاك. كما أن قصور تلك المرحلة بدت أضخم وأفخم، وحجراتها أوسع وجدرانها أسمك، وانتشرت فيها بشكل كبير الزخارف المحفورة على الجص، وعقدت بواباتها بعقود نصف دائرية أو مدببة. وقد استخدم العمود والدعامة استخداماً كثيراً في مباني تلك المرحلة.

أما النوع الثاني، وهو المساكن الشعبية التي كان يبنيها عامة الناس، فتمثل النسيج العمراني الرئيسي لمعظم المدن والقرى الأثرية المنتشرة في أنحاء المملكة، وهذا

النوع تعرض أكثره للتدمير والإزالة في المدن التي استمر السكن بها. كما أن هذا النوع من المباني كان عرضة للزوال السريع لأسباب كثيرة، منها أن المواد التي بني بها تتكون بشكل رئيسي من اللبن والطين أو من الأحجار غير المهذبة والمبنية بمونة الطين. كما استخدم في بناء الأسقف جذوع وأغصان الأشجار المحلية، كما أن جدران تلك المساكن لم تكن سميكة مقارنة بمباني النوع الأول. أما عن تخطيطها فهي تتكون من وحدات سكنية تحتوي كل وحدة منها على ساحة أو حوش، غالباً ما يكون جانبياً، وفي إحدى زواياه منطقة خدمات للطبخ. وعلى الجانب الآخر من الوحدة غرفة أو أكثر. وتحتوي معظم تلك الغرف على مخازن صغيرة اقتطعت من الغرفة بجدار رقيق.

وقد تضمنت العمائر التي اكتشفت في مواقع الآثار الإسلامية المبكرة بالمملكة معظم العناصر المعمارية التي عرفت في العمارة الإسلامية بشكل عام. كما وجدت أمثلة كثيرة للزخارف الإسلامية التي وظفت لتزيين بعض مباني تلك المرحلة.

ومن أهم العناصر المعمارية التي كان لها وجود في العمارة الإسلامية المبكرة في الجزيرة العربية الأعمدة. وهي بناء أسطواني يوظف لحمل الأسقف بأنواعها أو لترتكز عليه أرجل العقود أو لوظائف جمالية، وهو يبنى بأسلوبين يختلفان باختلاف مادة البناء. الأسلوب الأول يكون من قطعة حجر واحدة أو من قطع على شكل خرزات توضع الواحدة فوق الأخرى ثم يكسى جسم العمود بمادة غالباً ما تكون الجص. والنوع الثاني من الأعمدة يُشكَّلُ من حبات الآجر أو من القطع الحجرية على شكل أسطواني ثم يكسى بالطين أو الجص لتكوين سطح خارجي متجانس. وتقام الأعمدة منفردة، وأحياناً تبنى مدمجة في جدار أو دعامة، لغرض جمالي. وقد وجدت الأعمدة في آثار معمارية كثيرة في المملكة، وأهم أمثلتها آثار المساجد وبعض القصور الفخمة.

ومن العناصر المعمارية التي امتازت بها العمارة الإسلامية بشكل عام العقود، وقد وجدت أمثلة كاملة لبعض أشكالها في بعض الآثار التي يعتقد أنها تعود للقرون الهجرية المبكرة. كما وجدت دلائل أثرية معمارية في بعض المواقع تشير إلى استخدام العقود عناصر في عمارة تلك المواقع. واستخدمت بشكل عام العقود في معظم المباني الحجرية أو

تلك التي بنيت بالآجر، بينما لم يكتشف حتى الآن ما يشير إلى وجود عقود في المباني التي بنيت باللَّبِن والطين والتي تعود إلى الفترة المعنية بهذا المبحث. ولعل ذلك ناتج عن أسباب، منها سوء حالة الآثار المعمارية الطينية المكتشفة من تلك الفترة. وعلى كلٍ فاحتمال وجودها وارد، خصوصاً إذا علمنا بوجود أمثلة لعقود في مباني المساجد والبيوت الطينية التقليدية المتأخرة في المنطقتين الوسطى والشرقية وبعض أجزاء من الجنوبية.

وقد استخدمت العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والكتابية في تزيين البيوت والقصور وإن كانت على نطاق ضيق. فمنها ما حفر على الجص أو نفذ بالألوان على جدران مجصصة. أما الزخارف الكثيرة على جدران بعض المباني التي تعود إلى القرن الماضي وبداية هذا القرن، خاصة في منطقة جازان والمنطقتين الوسطى والشرقية، فإنها تجعلنا على يقين من أنها تمثل امتداداً لثقافة معمارية تعود لفترات إسلامية مبكرة، وربما تعود لعصور ما قبل الإسلام. كما استخدمت حبات الآجر (الطوب الأحمر) لتكوين عناصر متكررة لتشكيلات هندسية زخرفية لغرض تزيين بعض جدران الواجهات أو قاعات الاستقبال في بعض القصور الإسلامية

تشكيلات زخرفية بالآجر في أحد القصور الإسلامية المبكرة – منطقة المدينة المنورة

المبكرة، التي عثر على بقاياها في أنحاء مختلفة من المملكة.

ولطبيعة المناطق التي توجد فيها تلك المباني تأثير كبير في تحديد نوع المواد المستخدمة. ففي المناطق الجبلية التي تكثر فيها الصخور انتشر البناء بالأحجار حتى في المباني الشعبية، أما سكان المناطق الساحلية فيبنون بالأحجار الجيرية أو بالأحجار المرجانية التي يقطعونها من صخور السواحل الضحلة، ويمثل اللَّبِن والطين المادتين الأساسيتين في بناء معظم العمائر في المناطق التي لا تتوافر فيها الأحجار، حتى عند بنائهم القلاع والقصور الضخمة. وفي بعض المناطق التي تكثر فيها الأمطار والسيول استخدم البناؤون الأحجار في بناء الأجزاء السفلى من الجدران وأكملوا بقية البناء باللَّبِن والطين. وقد استمر هذا التقليد في استخدام مواد البناء معمولاً به عبر العصور الإسلامية المتعاقبة إلى ما قبل النقلة الحضارية الحالية.

ونجد في عصرنا الحاضر عدداً قليلاً من الآثار الشاخصة لا تتناسب مع حجم الدور التاريخي الذي أدته الجزيرة العربية خلال فترات الازدهار التاريخية، ولهذا التناقض مبررات نذكر منها:

استمرار النشاط الاستيطاني في معظم المدن الإسلامية المبكرة إلى أيامنا هذه مما جعل من المستحيل بقاء العمائر والمباني القديمة نفسها، بل كان كل جيل يدمر ما بناه الذين سبقوه ليقوم هو بدوره ببناء مبان ودور تتناسب مع متطلباته وثقافة عصره. وكذلك ساعد استخدام المواد البسيطة في البناء، مثل اللَّبِن والطين والأخشاب في معظم العمائر، على سرعة تدهورها وزوالها. كما تسببت بعض العوامل الطبيعية في تدمير آثار كثير من المدن والمستوطنات الأثرية المهمة أو إخفائها. ونرى ذلك واضحاً في بعض مناطق المملكة التي تتميز طبيعتها بوجود الرمال الزاحفة أو السيول الجارفة. وكذلك ما تسببه الرطوبة والملوحة من سرعة تدهور المباني في المناطق الساحلية.

العمارة الدينية

اتّسم فن العمارة في صدر الإسلام بالبساطة في تصميمه ومواده، ولما ازدهر الاقتصاد بعد الفتوحات وتوسّع الدولة الإسلامية بدأ تطور فن العمار مستفيداً من التمازج الثقافي والفكري بين شعوب العالم الإسلامي، فنشطت حركة التعمير في العصور الإسلامية المتعاقبة وتجلّى ذلك

في العناية بالمساجد والمدارس والأربطة وغيرها.

المساجد. عني المسلمون بعمارة المساجد منذ هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وقد ازدهرت عمارة المساجد على مدى القرون حتى أصبحت إحدى معالم الحضارة الإسلامية في أنحاء العالم.

المسجد الحرام: بدأت العمارة الإسلامية في المسجد الحرام بمكة المكرمة منذ عصر الخلافة الراشدة؛ إذ جاءت الزيادة الأولى في عمارة المسجد الحرام أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب # إثر سيل عظيم داهم مكة سنة ١٧هـ حتى اقتلع مقام إبراهيم وجرفه إلى أسفل مكة، فلما بلغ ذلك الخليفة هاله ذلك فركب من ساعته فزعاً إلى مكة، وأعاد المقام إلى مكانه. فلما رأى كثرة الناس وازدحام المصلين اشترى دوراً كانت ملاصقة للمسجد الحرام وهدمها وأدخلها في أرضه. وقد جعل للمسجد حائطاً كان ارتفاعه دون القامة، وكانت المصابيح

رسم قديم للمسجد الحرام والمنازل المحيطة به

صورة قديمة للمسجد الحرام

توضع عليه، فكان عمر بن الخطاب # أول من أحاط المسجد بجدار، وهو أول من وسعه فجعل له أبواباً. وكانت الزيادة الثانية في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان # إذ ازداد السكان زيادة ظاهرة، فاشترى دوراً من تلك الدور التي كانت حول المسجد الحرام، فهدمها وأدخلها في أرضه توسعة له. وجعل للمسجد الحرام أروقة، وبهذا يكون عثمان # أول من اتخذ الأروقة فيه. فقد كان قبل ذلك فناءً فسيحاً لا رواق له ولا سقف يظل المصلين.

وفي خلافة عبدالله بن الزبير # عمر المسجد بعد انتهائه من عمارة الكعبة المشرفة. وقد زاد في عمارته زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية واشترى لذلك دوراً وأدخلها في المسجد. وقد سقف عبدالله بن الزبير المسجد وجعل فيه أعمدة من الرخام.

وأما في عهد عبدالملك بن مروان فقد أمر بتجديد عمارة المسجد الحرام، فرفع جداره وسقف بالساج وجُعِل على

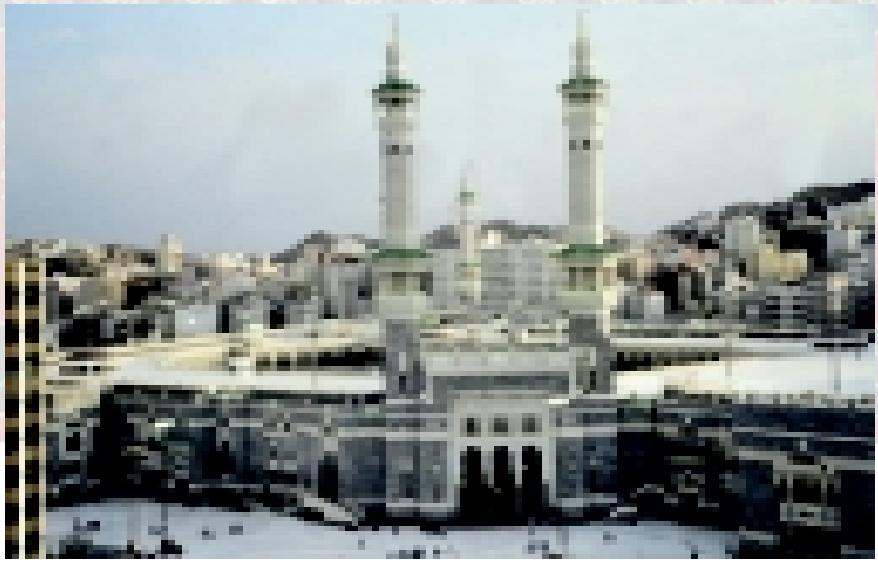

باب الملك عبدالعزيز بالمسجد الحرام

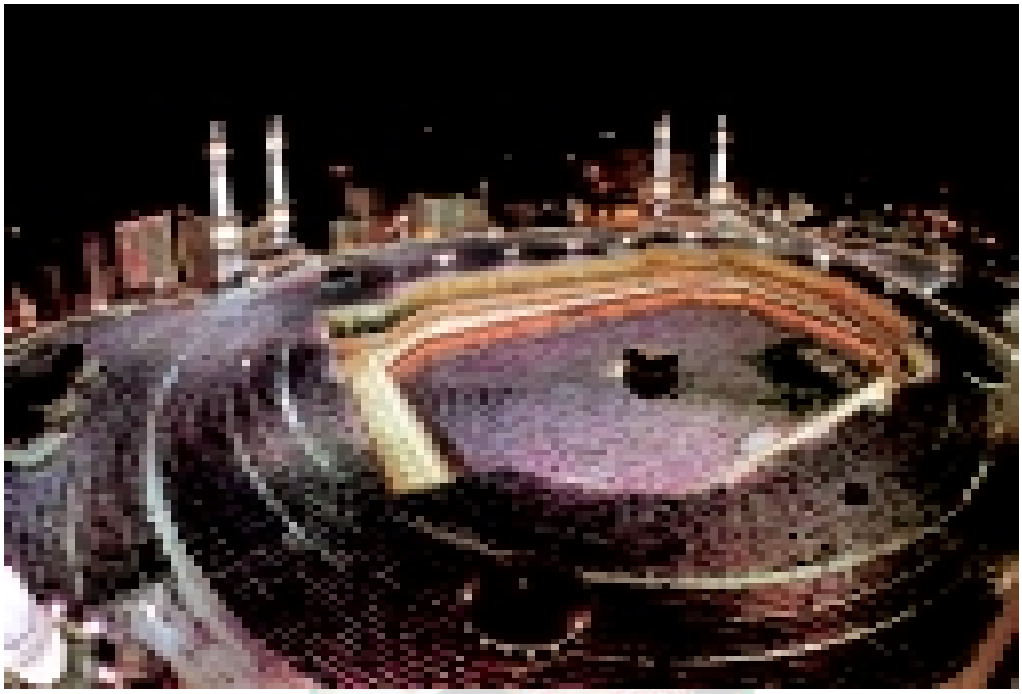

صورة حديثة للمسجد الحرام

رأس كل أسطوانة خمسون مثقالاً من الذهب.

وفي عهد الوليد بن عبدالملك نقض الوليد عمل أبيه وعمر المسجد عمارة محكمة، فأتى بأساطين الرخام من مصر والشام، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وجعل للمسجد شرفات، وجعل في حائطه عقوداً زين أعلاها بالفسيفساء، وجعل له سرادقات. فلما ولي أبو جعفر المنصور أمر بشراء الدور في الجهتين الشمالية والغربية وأدخلت أرضها في المسجد الحرام، وأمر المنصور بإنشاء منارة في منتهى زيادته في الركن الغربي من الجانب الشمالي، وقد اتصل عمل المنصور بعمل الوليد بن عبدالملك، وأنشأ طاقاً واحداً بأساطين رخام يدور حول المسجد، وتقدر زيادته بضعف ما كان عليه المسجد قبل ذلك. وزخرف المسجد بالفسيفساء والذهب، وزين بنقوش، وكسي حِجْر إسماعيل بالرخام. أما زيادة المهدي العباسي فهي معادلة لكل الزيادات السابقة من عهد عمر بن الخطاب # حتى أبي جعفر المنصور.

وتوالت بعد ذلك توسعة الحرم وزياداته والعناية به. فقد رمم المسجد

عام ٢٧١هـ في عهد المعتمد على الله. وضم أبو العباس المعتضد بالله دار الندوة وأضاف منارة عرفت بمنارة بـاب زيادة، وأجريت عدة تحسينـات أخرى. أما في العصر المملوكي فقد هطلت على المسجد أمطـار غزيرة سقـطت لها مـئذنة باب الحازورة وسقـط عمودان بما عـليهمـا، وشب حريق في السنة نفسها أضر بالجانب الغربي فجدد المسجد تجديداً شاملاً. أما في العصر العثـماني فقد جدد السلطان سليمان سنة ٩٧٢هـ عمارة المسجد وأهداه منبراً رخامياً، وأنشأ المدارس الأربع في جهته الشمالـية، وجددت عمارته أيضاً في عهد السلطان سليم.

وما نزال نشاهد بعض مآثر العمارة الإسلامـية المـبكرة، ومـنهـا الأعمـدة الرخامية التي وضـعها الخليفة العباسي المهدي وعليها كتابات كوفيـة توثق هذه العمارة في ذلك العهد المبكر، بالإضافة إلى نقوش إسلامية من العصرين المملوكي والعثماني على الأعمدة التي تحمل القباب المحيطة بصحن الكعبة الشريفة، بجانب كتابات وثائقية أخرى حول الكعبة.

ونظراً لازدياد زوار بيت الله الحرام من معتـمرين وحجاج، دأبت الدولـة السعـودية منذ تأسـيسها علـى صيانة المسـجد الحرام وعمـارته. والتوسـعة

تكسية الكعبة المشرفة بعد تجديدها

السعودية الأولى كانت في عهد الملك عبدالعزيز، رحمـه الله، وأُكملت في عهد الملك سعود، رحمه الله (١٣٦٨-١٣٧٥هـ)، ثم جاءت التوسعة الثـانية المهمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملـك فهد بن عـبدالعـزيز (١٤٠٩-١٤١٣هـ) التي زادت من مساحة المسجد والساحات المحيطة به بحوالي ١٣٥ ألف متر مربـع لتصبح مساحة الحـرم ٣٢٨ ألف متر مربع، وليرتفع استيعاب الحرم إلى أكثر من مليون مُصَلٍّ. وهذه التوسعة تمثل أرقـى ما توصلـت إليه المهـارات الهندسية مـن متانة في البناء، وجودة في التنفيذ، وجمالية في الإبداع الفني، وتقـنية عـالية في الإضـاءة والتوزيـع الصـوتي والـتهوية، بالإضـافة إلـى

التوسعات الرئيسية للمسجد الحرام عبر العصور الإسلامية

الاهتمام بمختلف المرافق العامة المتعلقة بالحرم المكي الشريف.

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تتأثر كل الأبنية بالعوامل الجوية المختلفة. ولقد تأثر بناء الكعبة المشرفة بعد مرور نحو ٣٧٥ سنة على ترميمها الشامل عام ١٠٤٠هـ. وفي عام ١٤١٥هـ تم ترميم الكعبة ترميماً خارجياً جزئياً. وبعد دراسات هندسية مفصلة لوضع المبنى بصفة عامة، وضعت الخطط وبدأ ترميمه ترميماً شاملاً في شهر محرم من عام ١٤١٧هـ على عدة مراحل، شملت الأساسات، والجدران والأعمدة، والسقف، وغيرها.

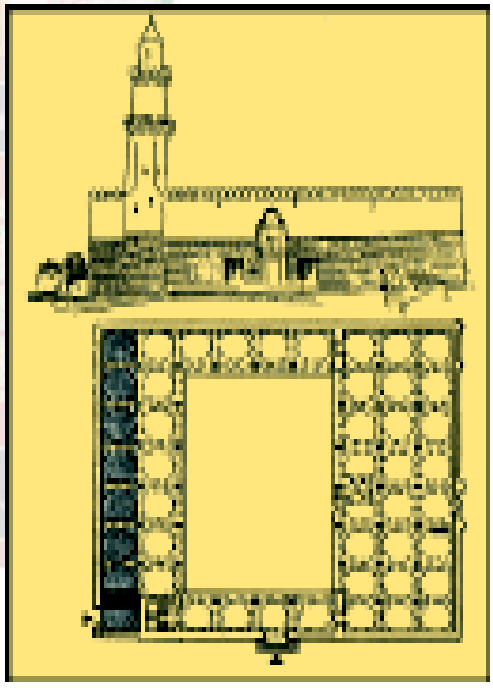

تخطيط مسجد قباء – المدينة المنورة

وانتشرت المساجد في عهد الرسول ﷺ في المدينة المنورة وفي كثير من المواقع التي وقف فيها الرسول خلال غزواته. كما أمر ببناء المساجد في أماكن كثيرة في طريقه إلى تبوك وخيبر والطائف وعلى الطريق بين المدينة ومكة، وفي كل مكان دخله الإسلام في عهده.

وقد بدأت عمارة المساجد في المدينة المنورة منذ أن هاجر الرسول ﷺ إليها من مكة المكرمة. فقد أمر رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة ببناء مسجد قباء، أول مسجد أسس على التقوى.

المسجد النبوي: ما أن استقر الرسول ﷺ في المدينة حتى شرع في عمارة مسجده بعد أن اشترى أرض المسجد من غلامين يتيمين. واختط الرسول المسجد بنفسه وجعله ٧٠×٦٣ ذراعاً، وجعل أساساته من الحجر وجدرانه من اللَّبِن وسقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخل. وكانت عمارة المسجد بسيطة في بداية الأمر.

والمسجد النبوي الشريف من أهم المساجد قاطبة، فهو ثاني الحرمين الشريفين، وهو أول مدرسة إسلامية، وقد خطه الرسول ﷺ بيده الكريمة حين بركت ناقته في مربد فاشتراه واشترك مع أصحابه في تنظيفه ثم بدئ بعمارته،

صورة حديثة للمسجد النبوي

وجعل أساس المسجد من الحجارة وسقف جزء منه بجريد النخل أما أعمدته فاتخذت من جذوع النخل، وكانت القبلة نحو بيت المقدس حتى حولت إلى البيت الحرام بعد ذلك. وكان للمسجد ثلاثة أبواب، أحدها باب أبي بكر في الجهة الغربية، وباب آل عثمان وهو في الجهة الشرقية، والثالث باب عاتكة الذي صار اسمه بعد ذلك باب الرحمة. وكان باب آل عثمان هو الباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ. وتعد هذه هي العمارة الأولى للمسجد النبوي الشريف، وهي تُبين عن البساطة التي كان عليها موازنة بما آلت إليه عمارته بعد ذلك. وقد وسع المسجد النبوي بعد فتح خيبر، وفتح الباب القبلي الذي أغلق بعد أن حولت القبلة إلى المسجد الحرام. وأكمل سقف المسجد بالجريد وغطي بالطين استجابة لشكوى الصحابة من شدة الحر. وأصبحت مساحة المسجد في عهد الرسول ﷺ ٢٤٧٥م٢. وبعد أن أتم رسول الله بناء المسجد بنى بيتاً لأم المؤمنين عائشة، ثم بنى لأم المؤمنين سودة، ثم بنى بيوت باقي أمهات المؤمنين رضي الله عنهن. وقد حرص صحابة رسول الله على

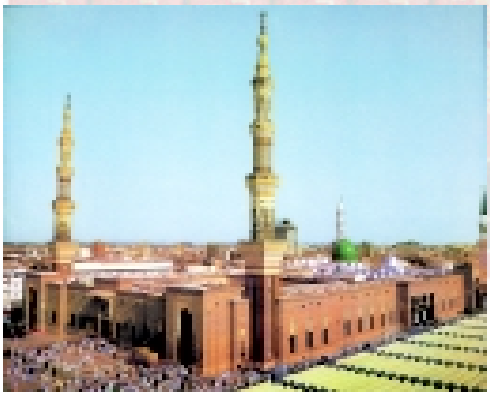

المسجد النبوي قبل التوسعة الأخيرة

المسجد النبوي

الاهتمام بالمسجد النبوي فحسنوه ووسعوه؛ إذ فتح عمر بن الخطاب # ثلاثة أبواب أخرى للمسجد، وزاد عمودين في الجهة الغربية وعمودين في الجهة الشمالية، وفرش الأرض المكشوفة بحصباء. وصارت مساحة المسجد في العام الرابع عشر للهجرة ٣٥٧٥م٢. ومن أهم التوسعات التي شهدها المسجد عمارة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي بناه بالحجارة المنقوشة والجص، وجعل له أعمدة حجرية وسقفه بالساج، وبنى فيه مقصورة بالطوب (اللَّبِن المحروق). وفي العصر الأموي أَعاد الوليد بن عبدالملك سنة ٨٨هـ بناء المسجد النبوي، فجاءت عمارته شاملة وكاملة، فصارت مساحته ٦٤٤٠م٢. وأدخلت في مساحة المسجد غرف زوجات الرسول ﷺ والدور المجاورة، وقد استخدمت أحدث وسائل ذلك العصر في العمارة، وجلب لهذا عمال مهرة من فارس، واستوردت الفسيفساء والسلاسل والقناديل، وجعل للمسجد عشرون باباً. وأقيمت أعمدة من الحجارة حشيت حديداً ورصاصاً وبنيت الحجرة الشريفة على خمسة أركان، وجعل للمسجد محراب مجوف وأربع مآذن هدمت إحداها في عهد سليمان بن عبدالملك.

وكما تعددت أروقته تعددت نوافذه، وكسيت جدرانه بالرخام. وكانت هذه العمارة تليق بمسجد الرسول ﷺ الذي كان مركزاً علمياً في العصر الأموي. وفي عهد الخليفة العباسي المهدي شهد المسجد النبوي عمارة عباسية أوسع. ففي سنة ١٦٠هـ أصبح المسجد صحناً مكشوفاً

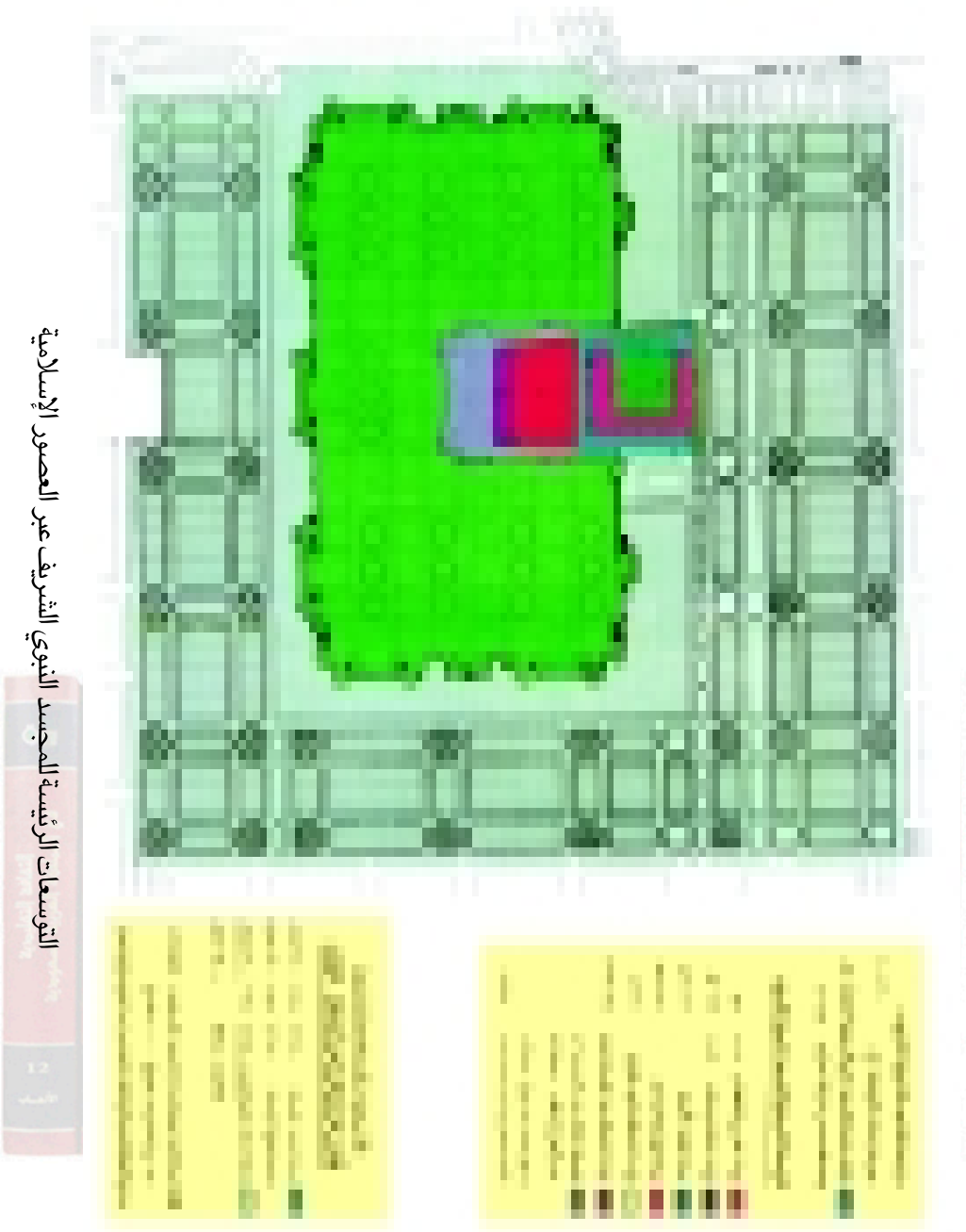

التوسعات الرئيسة للمجسد النبوي الشريف عبر العصور الإسلامية

صورة حديثة للحجرة النبوية

تحف به أربعة أروقة، وبلغت أعمدته ٢٩٩ عموداً. وبنى الناصر لدين الله سنة ٥٧٦هـ قبة في صحن المسجد لحفظ ذخائره بقيت حتى احترق المسجد في أول رمضان عام ٦٥٤هـ. فأمر المستعصم بالله بإعادة المسجد وتجديده عام ٦٥٥هـ. كما شهد المسجد النبوي بعض الإصلاحات المتفرقة في عهد المماليك، خاصة في عصر السلاطين؛ كالناصر محمد بن قلاوون الذي أمر ببناء المئذنة الرابعة، وجدد سقف صحن المسجد، وزاد رواقين في جهة القبلة، والسلطان الأشرف قايتباي الذي جدد عمارته تجديداً شمل جدرانه وأعمدته وسقفه ومآذنه، وأضافت هذه العمارة ١٢٠٠م٢ إلى مساحة المسجد.

وفي عصر الدولة العثمانية أجرى عدد من السلاطين العثمانيين إصلاحات

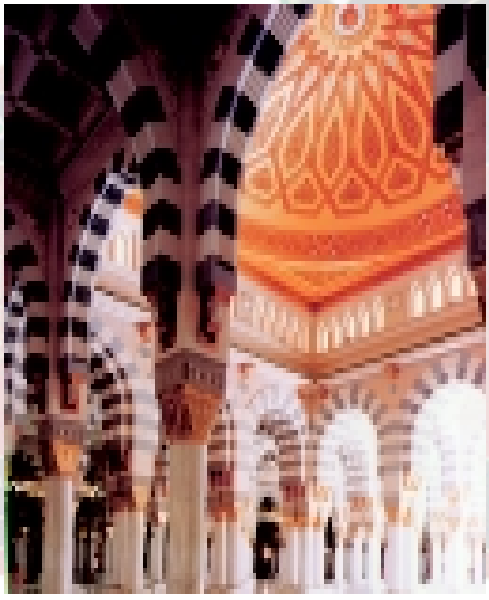

منظر داخلي للمسجد النبوي بعد توسعة خادم الحرمين تظهر فيه الزخارف المتنوعة وإحدى القباب المتحركة

وتجديدات للمسجد النبوي الشريف؛ منهم السلطان سليمان القانوني، والسلطان سليم بن سليمان، والسلطان مراد الثالث، والسلطان أحمد الأول، والسلطان عثمان الثالث. ولعل أكبر عمارة شهدها المسجد النبوي الشريف في العصر العثماني كانت في فترة حكم السلطان عبدالمجيد الأول (١٢٦٥-١٢٧٧هـ)، إذ استمرت عمارة المسجد اثنتي عشرة سنة. وقد أعطت العمارة العثمانية مسحة جمالية تتناسب مع مكانة المسجد، فكُسيت جدرانه بالدهانات الملونة، وزخرفت قبابه من الداخل بزخارف نباتيه وهندسية. وانتشرت في أرجاء المسجد الآيات القرآنية، وأسماء الله الحسنى، وأسماء النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. وشيدت أعمدة المسجد بالحجر الأحمر، وكسي بعضها بالرخام، بالإضافة إلى النوافذ الزجاجية المموهة وخلاف ذلك من العناصر المعمارية والزخرفية في مختلف أرجاء المسجد ومآذنه.

أما في العهد السعودي فقد شهد المسجد النبوي الشريف عدة توسعات، أهمها التوسعة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله (١٣٧٣هـ) وكانت التجديدات شاملة اقتضت ضم كثير من الدور والأسواق التي كانت تحيط بالحرم النبوي وعوض أصحابها. وقد مهدت الطرق التي تؤدي إليه، وبلغت مساحة

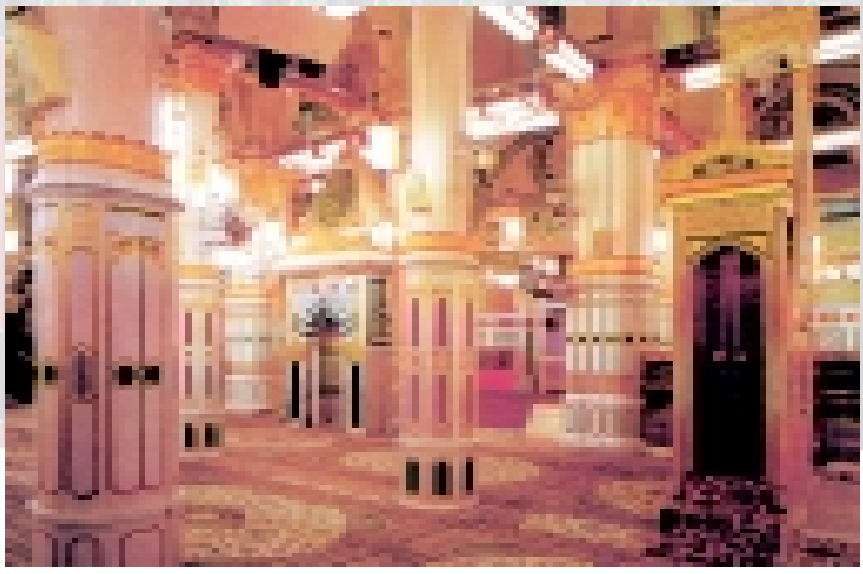

الروضة الشريفة في المسجد النبوي

التوسعة وتوسعة الملك سعود بن عبدالعزيز وتوسعة الملك فيصل بن عبدالعزيز وتوسعة الملك خالد بن عبدالعزيز. ثم التوسعة الكبيرة التي تمت في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (١٤٠٥-١٤١٣هـ)، والتي زادت من مساحة المسجد بشكل فاق كل التوسعات التي مرت على المسجد خلال تاريخه الماضي، حيث بلغت مساحة التوسعة (٣٨٤٠٠٠م٢)، فبلغت مساحة المسجد الكليّة (٤٠٥٠٠٠م٢) وهذا بدوره زاد أعداد المصلّين بالمسجد حتى بلغ ٧٠٠,٠٠٠ مُصَلٍّ في الوقت الحاضر. وشملت مساحة التوسعة معظم مساحة المدينة المنورة القديمة. وحافظت هذه العمارة على السمات العامة للعمارة الإسلامية. وامتازت توسعة خادم الحرمين بإضافة ست مآذن جديدة، فبلغ عدد مآذن المسجد عشر مآذن. أما أبوابه فأصبح عددها ٨١ باباً. وركب ١٨ سلماً تؤدي إلى سطح المسجد. وقد حُسِّن الدور الأرضي والعلوي وجمّل بأنواع من الخط العربي، إلى جانب الزخارف في الأسطح والجدران المنفذة بالحفر والفسيفساء والحجر والمشغولات المعدنية، ويبلغ عدد القباب الجديدة ٢٧ قبة تزن القبة الواحدة ٨٠ طنًا، رُكبت كل واحدة منها على السطح على مساحة ١٨م×١٨م، وعلى ارتفاع ٣,٥٥م فوق منسوب السطح، وعلى ارتفاع ١٦,٦٥م من منسوب الطابق الأرضي، ويبلغ نصف قطرها الداخلي ٧,٣٧٥م وارتفاعها أربعة أمتار. وكل قبة تنزلق على مجارٍ حديدية مثبتة فوق السطح ومدعمة بسبعة عشر هيكلاً معدنياً، وتحرك آلياً، أو يدوياً. وجعل للمسجد مولدات كهربائية حديثة، وزود بمحطة ضخمة لتكييف الهواء. وركبت في المسجد آلات تصوير تلفزيونية ثابتة ومتحركة وأجهزة إنذار حساسة وكذلك شبكة اتصالات حديثة. وأنشئ حول المسجد مواقف للسيارات ذات دورين تحت الساحات المحيطة بالحرم.

ومن المساجد المبكرة في المدينة المنورة التي شهدت إصلاحات متكررة على

مسجد الغمامة بالمدينة المنورة

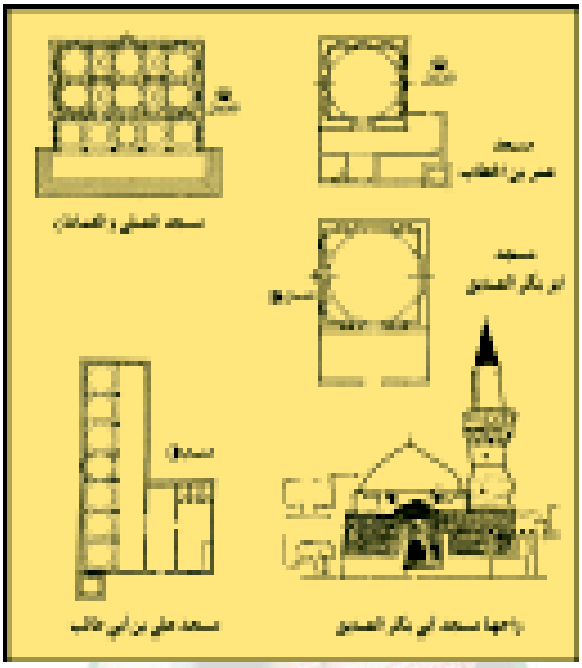

رسوم تخطيطية لبعض المساجد بالمدينة المنورة

مدى القرون الماضية مسجدا قباء والقبلتين ومساجد أخرى. وفي مكة، بالقرب من منى، مسجد البيعة الذي عُمّر في عهد الخليفة العباسي المهدي. وما تزال النصوص التأسيسية التي تسجل ذكرى مبايعة الأنصار للنبي ﷺ وتاريخ عمارة المسجد مثبتة على واجهة المسجد.

وهناك عدد من المساجد الأثرية الباقية التي يمكن الاستفادة منها في دراسة العمارة الإسلامية المبكرة، ومن هذه المساجد مسجد عمر بالجوف، ويرجّح أنه يعود إلى عصر الخليفة عمر بن الخطاب #. ويمتاز هذا المسجد بمئذنته الفريدة المبنية من الحجر، وهي مقسمة

مسجد العنبرية بالمدينة المنورة

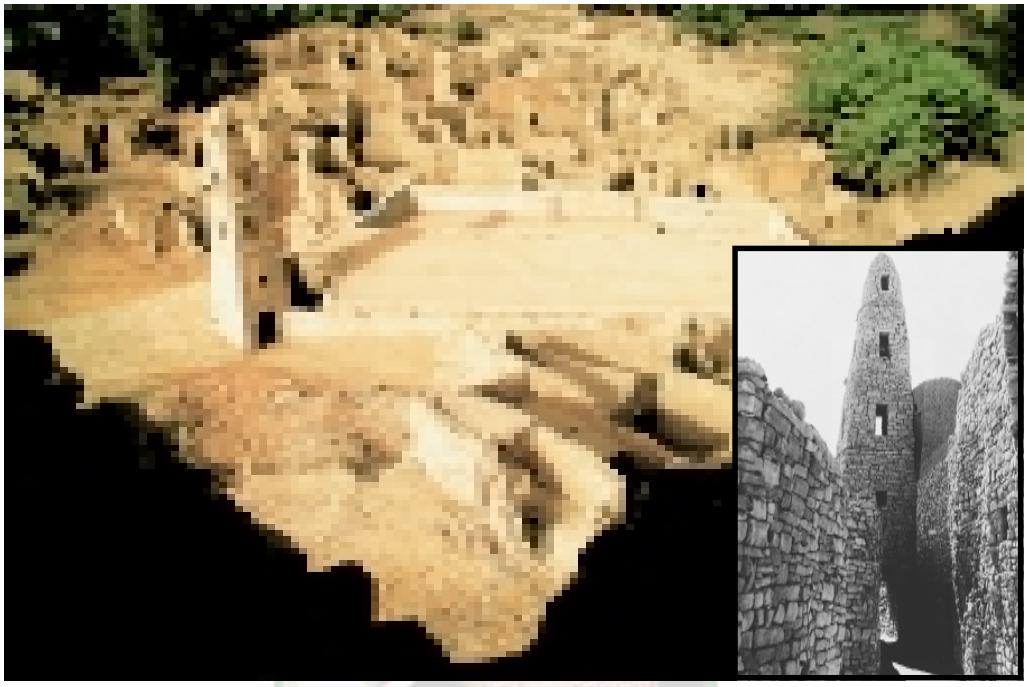

مسجد عمر بدومة الجندل، صورة علوية من قلعة مارد، وتظهر في الصورة اليمنى منارة المسجد

إلى ستة مستويات، وتنتهي بقمة مخروطية الشكل.

ومن المساجد المبكرة مسجد جواثا بالقرب من الهفوف، وهو أول مسجد صليت فيه الجمعة بعد المسجد النبوي الشريف، وما زالت عقوده المدببة وأكتافه العريضة تذكرنا بعمارة المسلمين المبكرة في سامراء. كما أظهرت الحفائر الأثرية في موقع الربذة وجود مسجدين مبكرين، أحدهما المسجد الجامع وله محراب نصف دائري مجوف الشكل ويبرز عن جدار القبلة. والآخر مصلى يقع في الطرف الشرقي من المدينة.

بقايا مسجد جواثا – المنطقة الشرقية

واشتهرت المدن الأخرى في المملكة بعدد من المساجد التاريخية التي ما يزال بعضها باقياً حتى يومنا هذا في مواضعها الأصلية، وقد شهدت هذه المساجد أعمال الصيانة والتجديد، فهدم بعض

منها وأعيد بناؤها بمواد البناء الحديثة. ومع ذلك فإن بقاءها في مواضعها يساعد على فهم تاريخ المدن التي ظهرت فيها تلك المساجد ومستوى تطورها.

فمدينة جدة مازال فيها عدد من المساجد التاريخية، منها مسجد الشافعي الذي يعد أقدم المساجد الباقية فيها، ويقع في حارة المظلوم، وعرف بالجامع العتيق. ويحتمل أن يعود بناء المسجد لسنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م. وتشكل المئذنة أقدم جزء فيه، أما باقي المسجد فقد أعيد بناؤه سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م. وهناك مسجد المعمار، في حارة المظلوم، وكان معروفاً قبل سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. ومسجد الحنفي في حارة الشام، ويدل نقش تأسيسي بداخله، وهو بيت شعري باللغة التركية، على أنه بني سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م. أما مسجد الباشا فيقع في الجزء القديم من محطة المظلوم، بالقرب من البحر، ويعتقد أنه بني سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥-٤م. بناه والي جدة آنذاك بكر باشا. وفي السنوات الأخيرة هدم المسجد وأعيد بناؤه. وتمتاز مساجد جدة التاريخية ببساطة البناء وندرة العناصر الزخرفية مع وجود عناصر معمارية في بعض العقود وأشكال المآذن، كما أنها جاءت خالية من القباب. وقد بنيت تلك المساجد

مسجد الشافعي - جدة

بالأحجار الجيرية المرجانية وغطيت الجدران بطبقة جصية.

وفي مدينة الطائف عدد من المساجد التاريخية ما يزال بعضها قائماً حتى الآن، منها مسجد الموقف أو الكوع، ومسجد الخبزة، ومسجد عبدالله بن عباس في المثناة، ومسجد عداس، ومسجد المدهون أو القنطرة، ومسجد الهادي، ومسجد السنوسي. وما يزال بعض هذه المساجد تقام فيه الصلوات وبعضها أطلال متهدمة. غير أن أشهر المساجد الأثرية بالطائف المسجد المعروف بمسجد عبدالله بن عباس الذي بناه الخليفة الناصر لدين الله أبو

مسجد عداس – المثناة – الطائف

العباس أحمد بن المستضيء بالله سنة ٥٩٢هـ، ثم جُدد سنة ٦٧٥هـ وأضيفت إليه بعض الإضافات والتجديدات في السنوات ١٠٠٧هـ، ١٠٧١هـ، ١١٩٣هـ، ونظراً لموقع المسجد المتميز في قلب مدينة الطائف أعيد بناؤه وتوسعته في العهد السعودي على نمط عصري حديث بحيث يتسع لآلاف المصلين.

ومن المساجد المشهورة في المملكة مسجد إبراهيم في الهفوف في المنطقة الشرقية –حي الكوت– ويعرف بمسجد القبة. ومن خلال النقش التأسيسي على واجهة الباب الرئيسي نعرف أن المسجد بني في أوائل شهر رجب سنة ٩٧٩هـ بأمر من السلطان العثماني سليم بن سليمان، وتولى عمارة المسجد علي باشا والي الأحساء في ذلك الوقت. والمسجد مربع يصل طول ضلعه إلى ١٥,٦٠م وتعلوه قبة كبيرة نصف كروية، يصل قطرها إلى حوالي ١٣,٨٠م وعمقها ٦,٨٠م، وترتكز على أربع حنايا ركنية. وقد زود المسجد بمنبر حجري ومحراب وبنيت القباب الصغيرة على الأروقة، كما زود بمئذنة حجرية دائرية الشكل. ويوجد بالمسجد عناصر زخرفية متنوعة، منها الزخارف الكتابية والهندسية والنباتية. وفي المملكة عشرات المساجد المبنية على الطراز التقليدي المحلي، خاصة في منطقة نجد. وتمتاز هذه المساجد بتنوع عناصرها المعمارية الفريدة المكونة من الأعمدة الحجرية الدائرية والعقود المدببة، والمحاريب الدائرية البارزة عن جدار القبلة والمآذن الدائرية والمربعة التي يرتفع بعضها لعدة أمتار عن مستوى المنطقة المحيطة بالمسجد. وتمتاز هذه المساجد بوجود الصحن المكشوف بالإضافة إلى استخدام سطح المسجد. وكذلك يوجد مرفق إضافي في كثير من هذه المساجد وهو المصلى الشتوي المعروف باسم الخلوة.

ويمكن مشاهدة أنماط من هذه المساجد في عدد من المدن، مثل الرياض والدرعية وسدوس وحريملاء والمجمعة وأشيقر وبعض محافظات سدير والقصيم وغيرها. وكما نشاهد في مدن الساحل الغربي وتهامة وجزائر فرسان عدداً من المساجد المهمة، مثل مسجد الأشراف

منارة مسجد قصر إبراهيم – الهفوف

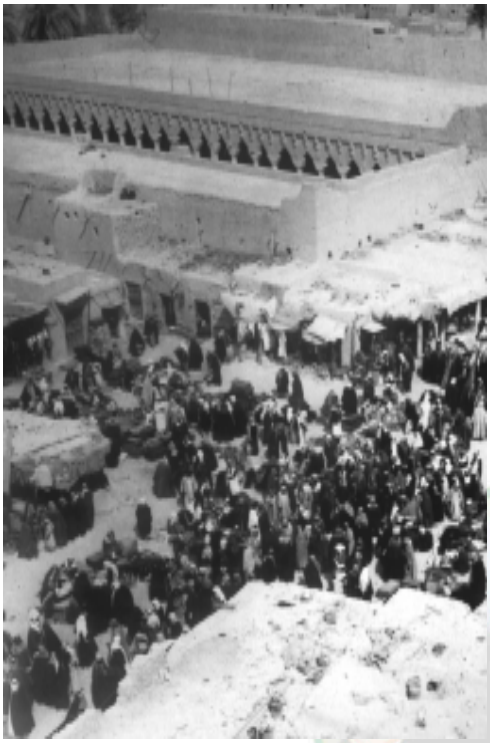

مسجد الإمام فيصل بن تركي – الرياض

ومسجد البديوي بمدينة الوجه في شمال غرب المملكة، ومسجد العباس بأبي عريش ومسجد النجدي في جزيرة فرسان، جنوب غرب المملكة.

المدارس. انتشرت المدارس، على وجه خاص، في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة لخدمة طلاب العلم والمجاورين. وقد ظل الحرمان الشريفان إلى اليوم منارتي علم من خلال حلقات الدرس والوعظ المقامة فيهما لتدريس تعاليم الإسلام وتطبيقها على وجهها الصحيح.

ظهرت المدارس في مكة المكرمة في حوالي منتصف القرن الخامس الهجري، وكانت مخصصة لتدريس أحد المذاهب الأربعة بالإضافة إلى العلوم الشرعية والأدبية. وكانت معظم هذه المدارس ملاصقة للحرم المكي الشريف، وبقي بعض مبانيها قائماً حتى عهد قريب ولكنه أزيل بسبب التوسعات المتتالية للمسجد الحرام ومرافقه المختلفة. وقد رصد مؤرخو مكة والرحالة الذين زاروها أعداداً من المدارس لأهميتها العلمية ولعلاقتها بالشخصيات التي قامت بعمارتها ووقفها

على طلاب العلم. وتعود فترات ظهور هذه المدارس إلى العصر الأيوبي والمملوكي والعثماني.

ومن المدارس التي كانت معروفة في مكة مدرسة الأرسوفي، ومدرسة الزنجيلي، ومدرسة طاب الزمان الحبشية، ومدرسة النهاوندي، ومدرسة ابن أبي زكريا، ومدرسة ابن الحداد المهدوي، ومدرسة الشرابية، والمدرسة المظفرية.

وقد مكّن وضع النصوص التأسيسية لهذه المدارس على واجهاتها مؤرخي مكة من معرفة من قام بعمارتها ووقفها أو من قام بإصلاحها. فعلى سبيل المثال عندما ذكر المؤرخ الفاسي مدرسة أبي علي بن أبي زكريا، قرب المدرسة المجاهدية، وتعرف بأبي طاهر المؤذن، قال «وتاريخ وقفها سنة خمس وثلاثين وستمائة على ما في حجرها ووقفها فيه مترجم بالإمام الشهيد وما عرفت حاله» (١٩٥٦، ج١: ٣٣٠). ولعل المعلومات المفصلة التي ذكرها الفاسي في كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام عن واحدة من هذه المدارس توضح الأساليب المتبعة في عمارة المدارس في بداية القرن التاسع الهجري. فقد أورد وصفاً لعمارة مدرسة الملك غياث الدين التي وقفها على الفقهاء من أصحاب المذاهب الأربعة، ووجه من اشترى عرصتها ونخلها وسقيه، في أول شهر رمضان سنة ٨١٣هـ، بمبلغ اثني عشر ألف مثقال. وبدأ في هدم ما كان في موضعها من الأبنية وشرع في بناء المدرسة، إذ فرغ من البناء في سنة ٨١٤هـ. وفي السنة نفسها، يقول الفاسي:

> بيض باطنها والصهريج الذي في جوفها، وغالب ظاهرها وعمل فيه أيضاً كثيراً مما يطلب عمله في العمائر وأحكمت منها العمارة، فاستحسنها ذوو البصائر، وكان وقفها في سابع عشر المحرم سنة أربع عشرة بعد الفراغ من عمارة سفلها وغالب علوها، وقرروا فقهاء فيها: أربعة من المدرسين، وهم قضاة مكة الأربعة يومئذ، وستين نفراً من المتفقهين، عشرين من الشافعية، وعشرين من الحنفية، وعشرة من المالكية، وعشرة من الحنابلة. وجعل الإيوان الشرقي منها محل تدريس الشافعية والحنفية، والإيوان الغربي منها محل تدريس المالكية والحنابلة، وجعل لوقف المنازل التي تعلوها وهي إحدى عشرة خلوة محلاً لسكنى جماعة من الفقراء، خلاف واحدة منها فإنه جعلها خاصة للمدرسة المذكورة (١٩٥٦، ج١: ٣٢٩).

كما خصصت مواعيد محددة للتدريس في أيام الأسبوع. وكان يُصرف على المدرسة والفقهاء والمدرسين والطلاب والسكان من ريع الأملاك التي وقفها الواقف، وتتمثل في حديقتين وسقية ماء بالإضافة إلى دار اشتراها الواقف بخمسمائة مثقال وعمرها في السنة المذكورة ووقفها على مصالح المدرسة المذكورة.

وبهذا يتضح الجهد الذي كان يبذل في إقامة تلك المدارس والعدد التقريبي الذي تستوعبه من فقهاء ومدرسين وطلاب. وكذلك أسلوب الإنفاق على المدرسة من الأملاك والأوقاف.

على أن المصادر التاريخية والجغرافية لم تمدنا بمعلومات مفصلة عن المدارس في المدينة المنورة، خلافاً لما ذكرته المصادر عن المدارس في مكة المكرمة. وقد كان التدريس أول الأمر في المدينة المنورة مُركزاً على المسجد النبوي الشريف وفي الأربطة والزوايا. غير أن المدارس بعد ذلك ظهرت في المدينة وأنشئت بالقرب من المسجد النبوي الشريف. ومن المدارس التي ذكرتها المصادر، المدرسة الشيرازية: أنشأها إبراهيم الرومي في القرن السابع الهجري، والمدرسة الجوبانية: أنشأها جوبان أتابك العساكر المغلية سنة ٧٢٤هـ، والمدرسة الأشرفية: أنشأها السلطان الأشرف قايتباي عام ٨٨٧هـ.

وفي العصر العثماني ازداد عدد المدارس، ومنها: المدرسة الباسطية، والمدرسة الزمنية، ومدرسة الملك المظفر، ومدرسة إبراهيم الخياري (١٠٣٧-١٠٨٣هـ)، والمدرسة المحمودية التي أنشأها السلطان محمود خان عام ١٢٣٧هـ.

وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري تنامت المدارس الحكومية والأهلية، فبلغ عدد المدارس الدينية سبع عشرة مدرسة، والمدارس الرشدية خمس مدارس، ومدرسة واحدة لتعليم الخط، كما بلغ عدد الكتاتيب ثلاثة عشر كتّاباً. ثم ظهر بعد ذلك ما يسمى بالمدارس التحضيرية والابتدائية والمدارس الإعدادية. وفي عام ١٣٢٧هـ أنشئت دار المعلمين، ومنذ عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م بدأ التعليم النظامي يأخذ مكانه ويتطور على مختلف المستويات التعليمية. أما المدارس التاريخية التي كانت قائمة في المدينة فلم يعد لها أهمية تذكر، خاصة مع التطور السريع الذي شهدته المدينة المنورة بكامل أحيائها، بالإضافة إلى التوسعات المستمرة للمسجد النبوي الشريف. ومما يلفت النظر عدم وجود وصف مفصل لتلك المدارس في

المصادر التي عنيت بتاريخ المدينة. وقد يكون من المناسب الإشارة إلى الوصف الموجز الذي ذكره صالح لمعي مصطفى لثلاث مدارس كانت قائمة بالقرب من المسجد النبوي وأزيلت عند التوسعة. يقول عن المدرسة الرستمية:

أنشئت في العصر العثماني في حارة الرستمية (البقيع سابقاً) وكانت مبنية من طابق واحد وتشتمل على عشر غرف لها عقود مدببة ترتكز على أعمدة دائرية ذات تيجان مدرجة، وللمدرسة شرفات مورقة علوية. ومن أسلوب التخطيط والعمارة لهذه المدرسة يعتقد أنها بنيت في القرن الثالث عشر

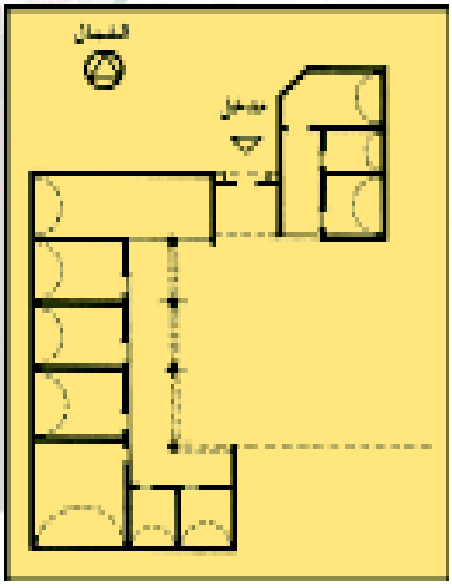

مسقط أفقي للمدرسة الرستمية التي تعود إلى العصر العثماني – المدينة المنورة

الهجري التاسع عشر للميلاد (١٩٨١: ٢١٧-٢١٨).

مدرسة حسين أغا. أنشأ هذه المدرسة بحي الأغوات حسين أغا ناظر التكية المصرية بالمدينة عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م. وكانت مخصصة لتعليم الدين. ولا يوجد وصف معماري لهذه المدرسة، غير أن مدخلها يمتاز بدقة بنائه وعناصره المعمارية. ويقول صالح لمعي مصطفى:

والمدخل يوجد في الحائط الشمالي، وهو عبارة عن عقد دائري من الحجر الملون باللون الأحمر والأسود. ويدور حول العقد جفت يتقاطع فوق مفتاح العقد مكوناً دائرة. ويوجد أعلى باب المدخل لوحة عليها نص من خمسة أسطر باللغة التركية العثمانية مؤرخ بحساب الجمّل وهو: ١٢٧٣هـ ١٨٥٦-١٨٥٧م (١٩٨١: ٢٢٠-٢٢١).

وكذلك كان بالمدينة مدرسة الوزير علم الدين الذي شغل وظيفة وزير في الدولة العثمانية. وتتكون من ثلاثة طوابق مبنية بالحجر. وقد نقش على مدخلها نص شعري تأسيسي مكون من ستة أبيات ومؤرخ بحساب الجمّل سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٣-١٨٨٤م (مصطفى ١٩٨١: ٢٢٢).

هذا ما يخص المدينتين المقدستين مكة والمدينة، أما باقي المدن التاريخية الأخرى في مختلف مناطق المملكة فلا يتوافر لدينا معلومات في المصادر التاريخية والأدبية عن المدارس فيها، مع العلم بأن المساجد ظلت على مدى القرون مكاناً لتدريس العلوم الدينية بجميع فروعها. وكانت المدن في نجد مشهورة بكثرة مساجدها التي ارتبطت بالعلماء الذين يقيمون فيها. ومن أشهر تلك المدن: أشيقر، وشقراء، وحريملاء، والمجمعة، وعنيزة، وبريدة وغيرها من المدن التي ذاع صيتها بسبب شهرة علمائها، خاصة مع قيام الدولة السعودية الأولى.

الأربطة. الأربطة جمع رباط، وهي في الأصل نوع من المباني الدينية كانت تقام في الثغور ويسكنها المجاهدون في الإسلام، وقد ظلت وظيفتها الدينية والعسكرية مستمرة لفترة طويلة من الزمن، إلا أن الصفة الدينية غلبت عليها فأقام بها طلبة العلم وغيرهم. وقد شهدت مكة المكرمة منذ القرن الخامس الهجري ظهور الأربطة بالقرب من الحرم المكي الشريف وفي أرجاء متفرقة من أحيائها، مثل سوق الليل وأجياد والمسفلة وغيرها. وقد قام بعمارة الأربطة وأوقافها عدد من السلاطين والأمراء والموسرين من الرجال والنساء. وكانت هذه الأربطة مخصصة لمجاوري بيت الله الحرام من الفقراء والمنقطعين ومن طلبة العلم. وقد خصص بعضها لفئة معينة من أحد الأقطار الإسلامية أو لمذهب محدد أو للمذاهب الأربعة. كما أن سكن بعض الأربطة كان مشروطاً بأشهر معينة في السنة للوافدين وبقية السنة للفئات الموقوفة من أجلها تلك الأربطة. وقد خصص المتبرعون للأربطة أموالاً جارية للصرف منها على الساكنين وعلى عمارتها وتزويدها بمرافق المياه، بالإضافة إلى تخصيص دور وبساتين داخل وخارج مكة يصرف من ريعها على تلك الأربطة. وقد قدم لنا الفاسي مؤرخ مكة المشهور (٧٧٥-٨٣٢هـ) حصراً بعدد الأربطة التي كانت معروفة في عهده، حيث ذكر ما يقرب من أربعة وخمسين رباطاً. ويفهم من حديث الفاسي عن هذه الأربطة أنها كانت مكونة من دورين ومبنية بالحجارة، وعلى واجهاتها أو مداخلها نصوص تأسيسية توضح تواريخ بنائها وواقفيها وشرط وقفها. والأربطة المؤرخة التي ذكرها الفاسي تواريخها بين سنتي ٤٠٠هـ و ٨٢٠هـ (١٩٥٦، ج١: ٣٣٠-٣٣٧)

وعلى سبيل المثال نذكر من هذه الأربطة رباط السدرة الذي وُقِف سنة ٤٠٠هـ، ورباط الفقاعية الذي أوقفته قهرمانة المقتدي الخليفة العباسي سنة ٤٩٢هـ للمنقطعات من الأرامل، ورباط الشرابي وهو للأمير إقبال الشرابي المستنصر بن العباس، وتاريخ عمارته سنة إحدى وأربعين وستمائة، ولرباط الشرابي أوقاف كثيرة من الكتب والمياه وغير ذلك بوادي مر ونخلة، ورباط الحافظ أبي عبدالله بن منده ووقفه على القادمين من أصبهان أربعين يوماً، وعلى سائر الناس عشرة أشهر وعشرين يوماً.

وهناك أربطة أخرى مثل: رباط رامشت، رباط المغاربة، رباط الحضارمة، رباط الخاتون، رباط قايماز، رباط الزنجيلي، رباط الخوزي، رباط التميمي، وغير ذلك من الأربطة التي كانت معروفة في عهد الفاسي، وقد زاد عدد الأربطة بعد ذلك في عهد الدولة العثمانية. ومع الامتداد العمراني لمكة المكرمة والتطور الذي حدث للمدينة المقدسة في العصر الحاضر، وبالأخص توسعة الحرم المكي الشريف والمرافق الحديثة المهمة، اختفت تلك الأربطة لانقطاع الأوقاف عنها وظهور الخدمات المتطورة والرعاية الكريمة التي يلقاها الحجاج وزوار البيت الحرام منذ تأسيس الدولة السعودية. ولا توجد أي دراسات معمارية عن الأربطة في مكة المكرمة. ويذكر أن مديرية الأوقاف العامة تحتفظ بسجلات للأربطة التي كانت معروفة قبل إزالتها، أو التي يحتمل استمرار استخدامها في المناطق التي لم تصلها التوسعات الحديثة.

وقد يكون من المناسب إيراد نصين كتابيين يتعلقان برباطين كانا قائمين في مكة للاستدلال منهما على معلومات حضارية وتاريخية. وأول النصين لرباط رامشت، ويوجد في متحف آثار الحرم المكي، وهو من الحجر البازلتي، أبعاده ١٠٣×٣٤سم، وعليه نقش مكون من سبعة أسطر بالخط النسخي البارز. ويمثل هذا النقش حجة وقف هذا الرباط المعروف باسم رباط رامشت:

١) بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوقف وتصدق الشيخ الأجل معين الدين شيخ الإسلام.

٢) غياث الحرمين جمال الطائفتين أبو القاسم رامشت ابن الحسين بن شيرويه.

٣) ابن الحسين ابن جعفر الفارسي جميع هذا الرباط بجوار عزوره عند باب.

٤) الحرم الشريف على جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقعه من سائر العراق.

٥) وخراسان الحاج والمجاورين وقفاً مؤبداً وصدقة محرمة محبسة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٦) وهو خير الوارثين فمن غيره أو بدله لعنه الله ولعنه اللاعنين -كذا- والملائكة. والناس أجمعين ولا قبل.

٧) الله منه صرفا ولا عدلا ولا أقام له يوم القيامة وزناً وذلك في شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

أما نص رباط المغاربة فكان بالرباط، أسفل مكة غربي المسجد الحرام بحوالي ٢٠٠م أعلى المدخل، واشتمل على نص (وقفية) الرباط المكون من سبعة أسطر كتبت بالخط النسخي البارز. ويقرأ النص على النحو التالي:

١) بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

٢) هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضي الفقيه الموفق المكين الأمين جمال الدين ثقة الخلافة.

٣) ولي أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن القاضي السعيد أبي القاسم عبدالوهاب بن الشيخ أبي عبدالله محمد.

٤) بن أبي الفرج العدل بالأعمال المصرية رضى الله عنه وقف وحبس وسبل وتصدق بجميع هذا الرباط.

٥) على فقراء الغرب الغربا المتعبدين ذوي الحاجات المجردين ليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب.

٦) تقبل الله ذلك منه وأثابه عليه بالإحسان وقف ذلك وحبسه بجميع حقوقه وقفاً صحيحاً.

٧) محرماً مؤبداً فمن غير ذلك أو بدله لعنه الله ولعنه اللاعنين -كذا- وجرى ذلك في سنة أربع وستمائة.

أما في المدينة المنورة، فقد نشأت الأربطة في الأحياء المحيطة بالمسجد النبوي الشريف، وكانت أيضاً مخصصة لسكن المجاورين والزائرين والمنقطعين من الغرباء والأرامل وطلاب العلم. وكما لاحظنا في الأربطة الموقوفة في مكة نجد أيضاً في أربطة المدينة المنورة أن كل رباط كان مخصصاً لفئة معينة من الساكنين القادمين من أحد الأقطار الإسلامية أو لمذهب من المذاهب. وبعض الأربطة كان موقوفا على النساء المنقطعات من دون الرجال.

ويعتقد أن أقدم رباط بالمدينة هو الرباط الذي بني في موضع دار عثمان

بن عفان # سنة ٤٢٣هـ وجعل رباطاً لطلبة العلم القادمين من المغرب. ثم ازداد عدد الأربطة بالمدينة المنورة حتى بلغت في عهد السخاوي (٨٣١-٩٠٢هـ) ما يقارب أربعين رباطاً. ومن أشهر الأربطة المبكرة رباط الناصر لدين الله (بني سنة ٥٧٠هـ)، ورباط المراغي (بني سنة ٥٧١هـ)، ورباط الزنجيلي (بناه نائب أمير عدن عثمان بن علي الزنجيلي سنة ٥٧٩هـ)، ورباط والدة الخليفة الناصر لدين الله (سنة ٥٩٩هـ). ورباط جمال الدين الأصفهاني، وقد وقف هذا الرباط في أواخر القرن السادس الهجري، ورباط السبيل (أنشئ سنة ٦٢٠هـ).

وتعددت الأربطة في المدينة المنورة مع مرور الزمن حتى أصبحت في بداية القرن الرابع عشر الهجري نحو ١٠٨ أربطة.

غير أن هذه الأربطة تلاشى دورها بعد التطوير والتحديث الذي شهدته المدينة المنورة في العهد السعودي، ولم تعد مستخدمة للفئات الموقوفة عليها. كما أن الضرورة اقتضت إزالتها لتوسعة المسجد النبوي الشريف وإدخال خدمات حديثة متطورة للمقيمين من المواطنين والمجاورين والقادمين لزيارة المسجد.

ويذكر أن الأوقاف العامة بالمدينة اشترت بنايات كبيرة لتحل محل الأربطة السابقة، ونقلت سكان الأربطة إلى هذه المباني، وهي تحمل الاسم السابق للرباط نفسه.

غير أنه للأسف لم توثق هذه الأربطة لمعرفة أحجامها وأساليب بنائها وعناصرها الزخرفية والكتابات التأسيسية المنقوشة على واجهات بعضها. ولا يوجد لدينا سوى وصف مختصر لرباطين اثنين فقط من مجموع أربطة المدينة.

أولهما رباط مظهر الأحمدي، وكان في حارة الأغوات بزقاق المواليد، ويتكون من طابقين، ويتوسطه حوش (صحن) بغرض التهوية والإنارة. ويشتمل المبنى على غرف للإقامة بالدور السفلي ومكتبة بالطابق الأول.

وللغرف التي تفتح على الصحن عقود دائرية محمولة على دعائم حجرية. وعلى واجهة المدخل نص باللغة العربية وآخر باللغة الفارسية. والنص العربي أربعة أبيات شعرية يشير آخرها إلى تاريخ المبنى بحساب الجمّل، ثم يأتي التاريخ مسجلاً بالأعداد الحسابية. ويقرأ النص على النحو التالي:

جانب من حي الأغوات

مكان عد للعلماء نديا
وللعباد والزهاد مثوى
به للأحمد يين الأعالي
شيوخ النقشبنديين مأوى
رجال للعبادة قد تخلوا
به أذكارهم لله نجوى
وفيض الحق أرخه مكان
به علم وارشاد وتقوى

بناه مظهر الأحمد سنة ١٢٩٢هـ

وثانيهما رباط ياقوت المارداني، وكان في حي الأغوات، ويعود بناؤه إلى العصر المملوكي. والبناء من طابقين وله باب يؤدي إلى مدخل منكسر ينتهي إلى حوش صغير مستطيل، تطل عليه الغرف السكنية. وتمتد إحدى واجهات المبنى بطول ٧م، وهي مبنية بالآجر أو الطوب الأحمر، وتقوم الواجهة على أساسات من حجر البازلت. ويعلو المدخل لوح من الرخام عليه نص تأسيسي بخط الثلث الغائر مكون من خمسة أسطر تقرأ كما يلي:

١) وقف هذا الرباط المبارك لوجه الله تعالى العبد.
٢) الفقير ياقوت المظفري المنصوري المارداني على
٣) الفقراء والمساكين الغرباء من الرجال خاصة دون
٤) النساء تقبل الله منه وأثابه الجنة برحمته وكرمه بتاريخ

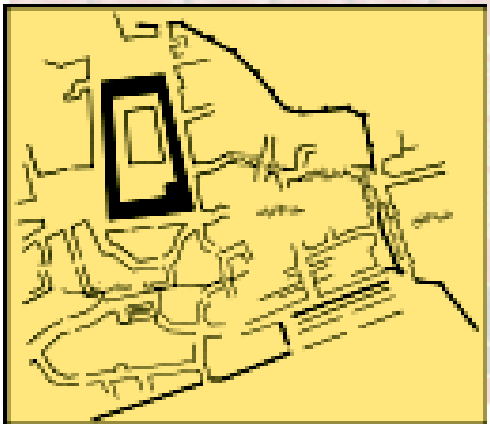

مخطط يبين موقع حارة الأغوات شرق المسجد النبوي الشريف، وبها يقع رباط ياقوت المظفري المارداني، الذي بني عام ٧٠٦هـ

صورة مفرغة لنقش رباط مظفر التأسيسي، الذي يحمل نص الوقفية في حارة الأغوات – المدينة المنورة

٥) سنة ست وسبعمايه.

ويتفق تاريخ عمارة هذا الرباط مع فترة تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الولاية الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ) وقد توفي السلطان سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤١م).

العمارة المدنية

ازدهرت العمارة المدنية أيضاً، وقد شملت عدة أنواع من المباني التي يناسب كل منها وظيفة خاصة به، مثل العمارة السكنية المتمثلة في القصور والمنازل، وفي عمارة الحمامات والأسواق وخاصة في المدن الكبيرة، وغير ذلك من المنشآت المدنية. ومن أمثلة ذلك:

القصور. القصر هو البيت الكبير الفاخر، واللفظة ذات أصول آرامية (قصرو)، وقد أطلقها علماء اللغة على البيوت الكبيرة في اليمن قبل الإسلام فقالوا: قصور اليمن. وأشهرها قصر غمدان وقصر سلحين، ومنها الخورنق والسدير في الحيرة.

وورد لفظ قصر في القرآن الكريم بصيغة الجمع، قال تعالى ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ (الفرقان: ١٠). وقال تعالى ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ (الأعراف: ٧٤). ووردت أيضاً بصيغة المفرد، قال تعالى ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ (المرسلات: ٣٢). وقد أظهرت التنقيبات الأثرية التي أجريت في نجران وجرش وتيماء والربذة والأسياح في القصيم بقايا أطلال مبان كبيرة متعددة الأدوار ومتنوعة المرافق، تعكس المعثورات التي وجدت بداخلها حياة الرفاهية والترف التي عاشها أصحاب تلك المباني مما يجعلنا نضعها، دون أدنى شك، في عداد القصور. وثمّة مجموعات أخرى من القصور بالقرب من بعض المدن، مثل قصور وادي العقيق بالمدينة وقصور وادي الجزل بالقرب من العلا.

الأسواق. كانت المدن التاريخية الكبرى، خاصة في الحجاز واليمامة والجزء الشمالي الغربي من المملكة، عامرة بالأسواق، ومن أبرز تلك المدن: مكة المكرمة والمدينة المنورة وحَجْر اليمامة ودومة الجندل وهجر والطائف وجدة. بالإضافة إلى المحطات والمنازل الكبيرة على طرق التجارة والحج، مثل: قرح، وفيد، والربذة، وضرية، وعشم، وعثر، وكذلك مدن الواحات. ونجد في المصادر التاريخية والأدبية والجغرافية أسماء عدد من الأسواق المشهورة مثل: سوق حجر ويسمى سوق اليمامة، وسوق الفَلَج الذي بلغ عدد حوانيته أربعمائة حانوت. ويذكر الهمداني أن سمك سوره يبلغ ثلاثين ذراعاً، وهو محاط بخندق وحجارة، وأبوابه من الحديد، وعده الهمداني مدينة عظيمة لكبر حجمه. ومن الأسواق

جانب من أطلال السوق القديم – العلا

الأخرى: سوق الخضرمة، وسوق الحائط وسوق جماز بالفقي باليمامة، وسوق خزبة، وسوق أكمة، وسوق حربة، وسوق العسجدية.

وكان يعرض في هذه الأسواق مختلف المنتجات الزراعية من حنطة وشعير وزبيب وتمور وفاكهة. وكذلك الماشية ومنتجاتها من سمن وزبد وأقط وجلود. ولا يخلو السوق من صناعات معدنية متنوعة مما يصنعه الحدادون. فضلاً عن الأسلحة والملبوسات بأنواعها وأدوات الزينة والعطارة وغير ذلك من أنواع الصناعات. وعرفت تلك الأسواق الأسماء التجارية مثل السمسار والصيرفي. يقول أحد الشعراء:

وأصبحت لا أستطيع الكلام
سوى أن أراجع سمسارها

ويقول آخر:

ولسانا صيرفيا صارماً
مثل حدّ السيف ما مس قطع

ومن الأسواق المشهورة في الحجاز حتى منتصف القرن الثاني الهجري سوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق ذي المجاز، ومواضع هذه الأسواق معروفة وأطلالها باقية حتى اليوم. وكانت تستقبل القوافل التجارية والسلع في أوقات معينة من السنة حيث يبدأ سوق عكاظ في غرة ذي القعدة ويبقى عشرين ليلة. ينتقل التجار منه إلى سوق المجنة لمدة ثماني ليال بعدها يخرجون إلى سوق ذي المجاز. ويستمر البيع والشراء فيه حتى الثامن من ذي الحجة، وهو يوم التروية، وقد سمي هذا اليوم بيوم التروية لأن الناس يترووون الماء من ذي المجاز لأنه لا ماء في عرفات ولا في مزدلفة.

وبعد فترة من الزمان ظهرت في مكة والمدينة الأسواق الثابتة والدائمة حسب تخطيط المدينتين. وفي ضوء المعلومات التاريخية نجد أن بعض الأسواق كانت مبنية وأبوابها شارعة على الدروب والأزقة، حتى إن بعض الدروب كانت تسمى بأسماء البضائع والسلع والصناعات التي تعرض فيها. وقد بلغ عدد الأسواق الدائمة في مكة ما يزيد على ٢٥ سوقاً، عدا الأسواق الموسمية. وقد سمي كل سوق باسم النشاط الحرفي أو التجاري المخصص له، فمن ذلك: سوق الحدادين، سوق الحذائين، سوق الخرازين، سوق الخياطين، سوق الصابون، سوق الصيادلة، سوق العطارين، سوق القوارير، سوق القواسين، سوق النجارين، سوق الفاكهة. وغير ذلك من أسواق المواشي والجمال والحمير التي كانت تكتظ بها مكة.

أطلال مبان في موقع سوق عكاظ، يُرجح أنها تعود إلى العصر العباسي – منطقة الطائف

ومن خلال المعلومات التي كتبها مؤرخو مكة والرحالة المسلمون يتضح أن أسواق مكة كانت متقابلة، وعلى ممراتها وطرقها أسقف لحماية الناس من حرارة الشمس والأمطار. ووصفت بعض أسواق مكة في القرن الخامس الهجري بحسن بنائها، مثل سوق العطارين، إذ ذكرت المصادر بأنها سوق جميلة البنايات وكلها عطارون. وذكر عن مدينة جدة في هذه الفترة أن فيها أسواقاً جميلة.

وقد تركزت الأسواق القديمة في مكة في الأحياء المجاورة للحرم المكي الشريف، وكانت مبنية بالحجارة والطوب المحروق، وبعض الدكاكين كانت تعلوها وحدات سكنية وفنادق. ومن أشهر تلك الأسواق المعروفة حتى عهد قريب، السوق المسمى بالسوق الصغير إلى الجهة الجنوبية من الحرم. وكان بمكة في بداية القرن الرابع عشر الهجري حوالي ٣٠٠٠ دكان. ومع التحديث الذي شهدته المدينه المقدسة دخلت الأسواق المجاورة للحرم في التوسعات الجديدة، وظهرت أسواق ومجمعات تجارية حديثة.

أما المدينة المنورة فقد اختط سوقها الرسول ﷺ وقال «هذا سوقكم فلا ينقص منه ولا يضربن عليه خراج».

ومع تطور المدينة المنورة وتوسع أحيائها شهد السوق ظهور الدور التي أقامها خلفاء بني أمية؛ فبنى هشام بن عبدالملك داراً عظيمة في السوق وجعل لها أبواباً معمولة في الشام وأكثرها من البلقاء، وجعل لدار السوق حوانيت في أسفلها وعلالي تكرى للسكن، وكان فيه التجار، فيؤخذ منهم الكراء.

وتطورت أسواق المدينة في العصر العباسي والفترات التالية، وأصبحت المساكن والأسواق تشكل نسيجاً معمارياً متلاحماً. فقامت الأسواق مصطفة على امتداد الأزقة والممرات بشكل مستقيم تعلوها الدور السكنية، وتنتهي دروب تلك الأسواق ببوابات تؤدي إلى المسجد النبوي. وكانت مواد البناء من الحجارة والطوب والأسقف من جذوع النخيل.

وقد توزعت أسواق المدينة أيضاً حسب السلع والصناعات المعروضة للبيع، وذكرت لنا المصادر أسواقاً عديدة، أشهرها أحد عشر سوقاً هي: سوق الحبابة، والثمارة، والسمانة، والرواسة، والفلتية، والخضرية، والدلالين، والخرازة، والعطارة، والقماشة، والخردية. ويذكر أن بعض الأسواق كانت أرضياتها مبلطة بالحجارة المطابقة السوداء، مثل سوق الحدرة أو سوق سويقة. وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري كان بالمدينة ٩٣٢ حانوتاً ومخزناً، وأربعة متاجر كبيرة (وكالات)، غير أن هذه الحوانيت والمتاجر تغيرت مع الوقت ليحل مكانها الطرز المعمارية الحديثة.

وإذا ألقينا نظرة على بعض المدن التراثية الباقية في منطقة نجد فبإمكاننا التعرف على موضع السوق وعلاقته بالنسيج العمراني للمدينة. فالسوق يكون عادة في وسط البلدة، وهو ميدان كبير تحيط به الحوانيت والمتاجر. كما تتصل بساحة السوق المرافق العامة الأخرى، ومنها المسجد الجامع ودار الإمارة والقاضي وسجن البلدة وغير ذلك مما له علاقة بالنواحي الإدارية والتنظيمية للبلدة.

ومن أبرز المدن التراثية التي ما زلنا نشاهد فيها بقايا الأسواق القديمة، أشيقر وعودة سدير. وهناك أسواق تقليدية أسبوعية اشتهرت بها بعض مناطق المملكة، خاصة في جنوب الحجاز وعسير وتهامة، وسميت تلك الأسواق باسم الموقع أو أحد أيام الأسبوع. ويجلب سكان القرى والبادية صناعاتهم اليدوية ومنتجاتهم الزراعية والحيوانية وغيرها إلى أقرب هذه الأسواق إليهم

ويعرضونها في ساحة كبيرة منذ بزوغ الفجر حتى غروب شمس ذلك اليوم. وتشاهد هذه الأسواق في عدد من مدن تهامة وعسير، مثل: صبيا وأبو عريش وأبها والخميس وظهران الجنوب وغيرها.

وعلى الصعيد الأثري فالمؤمل أن تكشف لنا الحفائر المستقبلية أمثلة من الأسواق في المواقع الأثرية القديمة التي كانت مدناً ومنازل ومدائن ذاع صيتها في العصور الإسلامية المبكرة، خاصة وأن المصادر أشارت إلى المتاجر والدكاكين والأسواق في بعض تلك المنازل والمدن. فمن ذلك أن عبدالله الهاشمي، عامل اليمامة في العصر العباسي المبكر، أحدث في سوق ضرية ما يزيد على ثمانين حانوتاً على شكل صفين ممتدين من الحوانيت التي كانت قائمة وأن الغلة التي كانت تجمع من الحوانيت والنخل والزرع ثمانية آلاف درهم في السنة.

ووصفت قرح (موقع المابيات) في القرن الرابع الهجري بأنه ليس بالحجاز بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة منها، وكان أصحاب الأموال والوجهاء يأتون إلى الربذة للاتجار في سوقها، وفي هذا الصدد نشير إلى أن الحفائر الأثرية بالربذة كشفت عن المنطقة التجارية. ويعتقد أنها سوق البلدة بسبب اختلاف نسيجها العمراني عن باقي المنشآت الأخرى، مثل القصور والدور السكنية. والشواهد الأثرية تؤكد أن السوق تقع في المنطقة المحفورة التي أطلق عليها اسم موقع د حيث عثر على عدد كبير من الأفران الفخارية لتحضير الخبز والأطعمة وخزائن لحفظ الحبوب، وغرف استخدمت فيما يبدو للسكن والتجارة. وتبلغ مساحة الغرفة الواحدة حوالي ٢×٣م وفي داخلها خزان مياه أرضي تحت مستوى أرضيتها، وتفتح الغرف على ممرات طولية. والمعثورات الأثرية في هذه المنطقة كثيرة ومتنوعة، منها قطع تالفة من قوارير وأنابيب وبوتقات عليها علامات الصهر، بالإضافة إلى الموازين والمكاييل وكِسَر لأوانٍ فخارية وخزفية وزجاجية وبعض قطع العملة.

ولعل الحفائر في المواقع الأثرية، مثل المابيات وعثَّر وضرية والجار وفيد ودومة الجندل والخضرمة وسهى وغيرها من المواقع، ستكشف في مستقبل الأيام عن التفاصيل البنائية للأسواق المبكرة.

ولا شك أن تلك الأسواق كانت تزدهر حيناً وتضمحل حيناً آخر، بل كان البعض منها ينتعش في مواسم ثم لا يلبث أن يخبو في مواسم أخرى، وتلك

ظاهرة اقتصادية تؤدي فيها عملية العرض والطلب واستتباب الأمن دوراً بارزاً.

أما أسباب قيام تلك الأسواق فقد كان لكل قرية أو تجمع سكاني فائض من الثروات تحتاج إلى الاتجار به أو استبداله بما هي في حاجة إليه، ولا يتيسر ذلك إلا من خلال الأسواق. ولم يكن اختيار موقع السوق بالأمر الهين، فلابد من توافر عدة عناصر تحبب الناس فيه وتسهل لهم الوصول إليه، منها سعته وانبساط أرضه، وسهولة الوصول إليه، وتوافر الخدمات اللازمة من المأكل والمشرب والمبيت، بالإضافة إلى علف الدواب وحظائرها. وكان يشترك في الحاجة إلى السوق عموم سكان الجزيرة العربية بمختلف الشرائح الاجتماعية، فالبادية يفدون إلى هذه الأسواق يعرضون سلع البادية التي غالباً ما تكون قطعاناً من مواشيهم إضافة إلى ما وصلت إليه أيديهم بالتبادل أو الغزو. في حين يعرض سكان الحواضر أنواعاً لا حصر لها من ضروريات الحياة ومكملاتها، ولم يكن هناك نظام معين أو طريقة موحدة في عملية البيع والشراء، فقد كانت إما مبايعة بأثمان أو مقايضة سلعة بسلعة ويحكمها في كلتا الحالتين التراضي بين الطرفين.

وهناك أنواع بيوع كانت في تجارة الجاهلية كالرمي بالحصاة، والمنابذة، والملامسة، والمعاومة، والمزابنة، والمحاقلة، والمخابرة وغيرها، وقد جرت في أنظمتهم التجارية مجرى العرف، ولعلها كانت مختصة بتجارة الجملة، أما تجارة التجزئة فلم تكن تخرج عن البيع بثمن معلوم أو المقايضة بسلعة مناسبة، على أن هذه وتلك كانت تنتهك، وغالباً ينتهكها أشخاص ذوو نفوذ مادي أو معنوي، وهنا يحدث الظلم والابتزاز.

تحدثنا كتب التراث أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن قدم إلى مكة فباع سلعة على العاص بن وائل السهمي، وهو قرشي، فظلمه في ثمنها وماطله في التسديد، وعرض الزبيدي مظلمته على الأحلاف: عبدالدار ومخزوم وجمح وسهم وبني عديّ وكعب فأبوا أن يعينوه، بل زجروه، فلما رأى الزبيدي الشر واضحاً وقف على أبي قبيس قبل طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة وصاح:

يا للرجال لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الحي والنفر
إن الحرام لمن تمت حرامته
ولا حرام لثوبي لابس الغدر

فتداعت لـذلك قريش فدخلوا دار عبدالله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه. فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكـانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمتـه. وهو ما عرف باسم حلف الفضول.

وكـانت الأسـواق بالإضـافة إلـى وظيفتها الرئيسية، وهي البيع والشراء، عـامرة بـأمـور أخرى يـنشـط إلـيهـا المجـتمـعون، مـن مفـاخرة ومـنافـرة ومساجـلات في الشعر وإنشـاده ونقده وافتداء الأسرى. وكثيراً ما كانت تعقد فيهـا مجالس الـصلح والتـحكيم بـين القبائل. كـما كانت القبائل تعلـن فيها تبرؤهـا ممن تخلعهـم لجرائم ارتكبوهـا ليعرف الناس ذلك فلا تؤاخذ القبيلة بما يقترفه أولئك الخلعاء. وفي عكاظ كانت تحمل الديون والإتاوات إلى أصحابها.

وقد حظي سوق عكاظ قبل الإسلام بأهمية خاصة ومكـانة سامية لم يبلغها سواه من أسواق العرب. وقد أهله لتلك المكانة، حسب ما يُعتقد، ثلاثة أمور لم تتيسر لغيره:

أولها: أنه يعقد خلال الأشهر الحرم (١-٢٠ من ذي القعدة من كل عام).

ثانيها: أنه قريب من مكة وفيها تؤدى شعائر الحج، والمتـسوقون يفيضون منه إلى مكة.

ثالثها: أنه يقع في منطقة تحيط بها قبائل ذات قوة وسلطان (قريش وهوازن ومضر) وكانت مضر بصفة خاصة تخفر لطائم (قوافل) النعمان.

ومع ما تقدم مـن اجتماع الأسباب في أهمية سوق عكاظ، إلا أن ذلك لم يمنع من قيام حروب طـاحنة كان سببها الأطماع الاقتصادية، والنعرات القبلية، وأهمهـا تلك التي أطـلق عليهـا حرب الفجار. ولعل إطلاق لفظ الفجار عليها كان من دواعي النفور منها وعدم الرغبة فيها، بل هو اعتراف بجرم شاركت فيه كافـة الأطراف، وتأثـر بنتـائجه عـامة القبائل. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت سوق عكاظ قلعة اقتصادية ومنارة إشعاع أدبية ومصدر تشريع وتنظيم، بل منتدى يضم مـختلف النـشاطات الاجتمـاعية والاقتصادية والسياسية في الجزيرة العربية.

تحدثنا كتب السيرة النبوية أن الرسول ﷺ كان قـد شهد سـوق عكاظ قـبل مبـعثـه، فقد روي عـنه ﷺ سـماعه لخطبة قس بن ساعدة الإيادي التي ألقاها بسـوق عكـاظ، وكان ﷺ قـد شهـد حروب الفجار وشهد حلف الفضول.

الحمامات. الحمام أحد المرافق العامة التي لا غِنىً عنها، ففيه الاغتسال والطهارة ونظافة الجسم والتطيب. وقد عرفت الحمامات في المدن الرومانية والفارسية والبيزنطية، ويبدو أنها لم تكن معروفة في الحجاز قبل البعثة النبوية وربما في باقي أنحاء الجزيرة العربية. غير أنها انتشرت في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية بعد حركة الفتوحات الإسلامية وأخذت طريقها لمدن الحجاز، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان للحمام وظائف مهمة، وهو من المرافق النافعة في حياة المدينة.

وقد نهى الرسولﷺالرجال والنساء عن دخول الحمامات، ثم رخص للرجال أن يدخلوها بالمآزر. وقد كتب عمر بن الخطاب # إلى أمراء الأجناد أن لا يدخل رجل الحمام إلا بمئزر ولا امرأة إلا من سقم. غير أن الحمامات في تلك الفترة لم تكن بتلك الكثافة التي عرفت بها المدن الإسلامية في العراق والشام ومصر، إذ بلغ عدد الحمامات في بغداد في القرن الخامس الهجري أكثر من ١٢٠ ألف حمام، وفي العصر الفاطمي بلغ عدد حمامات مصر ١١٧٠ حماماً، إلى غير ذلك من آلاف الحمامات التي أنشئت في بلدان المغرب والأندلس وبلاد فارس.

والحمام لابد أن تتوافر فيه شروط ومواصفات محددة عند بنائه حتى يؤدي الخدمة المطلوبة. فمن ذلك أن يكون مسدود المنافذ ليس فيه طاقات ولا أبواب مفتحة، وتكون جدره سميكة ومبنية بالحجر الصلب، وأن يكون رفيع البناء لتصعد الرطوبة، وواسع الفناء صافي الهواء تتفرق فيه الحرارة ولا تنحصر فيه الأنفاس المختلفة. وأن يكون كثير الضياء والنور حيث يتخذ له جامات من زجاج شفاف تضيء الحمام من أشعة الشمس، وأن يكثر ازورار دهاليزه وانعطافها وتحكم أبوابها لتمكث الحرارة. وتطلى جدره بالبياض المحكم منعاً لدخول الهواء. وكلما كان الحمام قديم البناء لمدة تبلغ على الأقل سبع سنين، كان أحسن للاستخدام. ويفضل أن تفرش أرضية الحمام بالرخام الملون لما له من أثر في الاحتفاظ بالرطوبة وتصاعد الهواء ولما له من جمال المنظر، ويستحسن أن تكون جميع جدرانه مزينة بأشكال زخرفية هندسية ونباتية وخلاف ذلك منعاً للملل. وأن يكون ماء الحمام عذباً غزيراً ونظيفاً وله حياض ومغاطس متسعة وعميقة، ويشترط أيضاً أن يكون مصوناً عن الدخان والغبار، ويشتمل على مَشْلح، وهو موضع نزع الثياب ومكان الاستراحة. وأن يكون وقود الحمام من

الأنواع الجيدة ولا يستخدم فيه الحطب الرديء الذي يؤثر على المحيط بشدة الدخان والرائحة الكريهة. وأن يشتمل الحمام على ثلاثة بيوت مختلفة منها الباردة والدافئة والساخنة، غير المشلح. هذه باختصار الشروط التي يجب توافرها لكل حمام يبنى في المدينة الإسلامية. وتختلف أحجام الحمامات ومستوياتها حسب المكان الذي بنيت فيه.

وللحمام مكانة خاصة في حياة الناس، حتى إنه في معماره لا يقل أهمية عن غيره من أنواع العمائر الأخرى.

ولا تعرف بالتحديد البدايات الأولى لظهور الحمامات في الحجاز وبقية الأقاليم الأخرى، ولكنها انتشرت في العصر الأموي. فأبو الدرداء كان يدخل الحمام ويقول «نعم البيت الحمام يذهب الضبية، يعني الوسخ، ويذكر النار».

ويقول أبو هريرة «نعم البيت الحمام يذهب الدرن ويذكر النار»، وكان لجرير بن عبدالله البجلي حمام بالعاقول.

ويذكر أن عبدالله بن عباس دخل حمام الجحفة. ويروي الفاكهي، الذي عاش في القرن الثالث الهجري، أنه كان بمكة ستة عشر حماماً بعضها كان خرباً، مثل حمام دار الواد. وكان منها ثلاثة حمامات في حارة أجياد. وبعض هذه الحمامات عرفت بأسماء ملاكها، مثل حمام أحمد بن سهل، وحمام معمر الحرسي، وحمام أبي يحيى المروزي. وكان لمعاوية بن أبي سفيان حمام في المعلاة.

ويبدو أن هذه الحمامات لم يستمر استخدامها في العصور المتأخرة، فقد ذكر إبراهيم رفعت، في بداية القرن ١٤هـ أنه كان بمكة حمامان على مثال الحمامات الرومانية بمصر، واحد بباب العمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠هـ، والثاني بالقشاشية ويسمونه حمام النبي. ولم يعد لهذين الحمامين وجود الآن إذ دخل الحمام الأول في توسعة الحرم والثاني في سوق الليل وقد هدم وقام مكانه مشروع تجاري.

أما الحمامات في المدينة المنورة فيبدو أنها لم تنتشر فيها مثل مكة، ولم تذكر لنا المصادر المبكرة أي معلومات بخصوصها. وقد سبق أن مر بنا أن جرير بن عبدالله البجلي (ت٥١هـ) كان له حمام في العاقول. وقد ذكر علي بن موسى (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م) صاحب كتاب وصف المدينة المنورة أن حماماتها اثنان، واحد في المناخة لأحمد نظيف أفندي الترجمان مدير الحرم النبوي، وهو تجاه الخاسكية (خسته خانة) المعمولة للعساكر النظامية، وأما الثاني فهو في السور

حمّام طيبة – المدينة المنورة

الداخلي قبالة الحرم الشريف في حارة ذروان بمحاذاة جدار السور، وهو للمرحوم نور الدين الشهيد وليس غيرهما حمامات.

وهذا يعني أن المدينة كان فيها حمام فيما يبدو على عهد نور الدين محمود زنكي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م عندما بني سور المدينة.

وكان لكل من الحمامين حديقة خاصة به. فالحمام المنسوب إلى أحمد أفندي كانت له حديقة مغروسة، وماؤها من ماء عين الزرقاء.

أما إبراهيم رفعت، صاحب مرآة الحرمين، فقد ذكر أنه كان بالمدينة حمامان، أحدهما داخل المدينة بناه السلطان سليمان القانوني، والثاني بالمناخة، وهما أشبه بحمامات مصر وفيهما مزولة لمعرفة الأوقات. وقد بقي هذان الحمامان في حالة جيدة حتى سنوات قريبة، ثم أزيلا نتيجة للتطوير الذي شهده المسجد النبوي الشريف والأحياء المجاورة له.

وأشهر هذين الحمامين، الحمام الذي سمي حمام طيبة وكان قائماً في حارة ذروان وقد بني في عهد السلطان سليمان ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥-١٥٦٦هـ بناه محمود باشا والي مصر، وجُدد بناؤه عام

١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م حسب الحجر التأسيسي الذي كان مثبتاً فوق باب الحمام. وقد أورد صالح لمعي مصطفى وصفاً موجزاً لحمام طيبة مقروناً بمخطط وثلاث صور فوتغرافية، يتضح منها أن المباني أحدقت به من كل جانب.

بني الحمام من الحجر البازلتي، وله مدخل يؤدي إلى صالة مربعة مغطاة بقبة ومنها إلى الصالة الرئيسية، والحمام مكون من: المدخل، والمشلح، ومراحيض، وبيت الحرارة، والمغطس، وحمامات الاغتسال، وبيت المعلم، وهو المشرف على الحمام، ومرافق أخرى. وقد غطيت أرضية الحمام بالرخام وجعل للقبة فتحات ثبت عليها زجاج غير شفاف للإضاءة.

ولم يقتصر استخدام الحمامات على مكة والمدينة، بل عرفت بعض المواقع الإسلامية المبكرة الحمامات العامة. فقد كانت فيد المحطة المشهورة على درب زبيدة، في القرن الرابع الهجري، جُعل بها حمام، إضافة إلى مرافق البلدة الأخرى. وكانت قرح الواقعة في وادي القرى، على طريق الحج الشامي، مزودة بحمام خارج البلد.

كما أن مناطق الواحات الزراعية كانت مزودة بمبان تستخدم للنظافة والاغتسال يطلق عليها حمامات. وكانت هذه المباني مقامة على مجاري العيون، ولكنها تختلف عن الحمامات المتعارف عليها في المدن الإسلامية. ومن أمثلة هذه المباني

جزء من الحجرة الدافئة بحمام الطريف – الدرعية

الحمام العام ببلدة العـلا، المسمى حمام تدعل أو حمام الجنينة. وقد خصص الجزء العـلوي من المـبنى لأخـذ ماء الشـرب والطـبخ، ولا يـدخلـه غيـر النـساء، وخصص الجـزء الأوسط للرجال وفـيه أمكنة للوضوء والاغتسال وسقي الدواب. أما الجزء الثالث من المـبنى فجعلت فيه أمكنة للاغتسال وغسل الثياب.

ومن الحمامات التي كانـت معروفة الحمام التركي بقصر إبراهيم بالهفوف، ولم يبق من أجزائه سوى الغرفة الحارة التي تعلوها قبة.

ومن بين المعـالم الأثرية الباقية فـي الدرعـية، عاصـمة الدولـة السعـودية الأولى، حـمام الطـريف جنوب حـي الطريـف. ولاتزال تشاهد حـتى اليوم جدرانه السميكـة والمداخل والأرضيات والمصاطب والأعمدة والساحات والمخازن مما يدل على أنه حمام كبير.

وقد اسـتخـدمت في بـناء حـمام الطـريف الأحجـار لبناء الأسـاسات، وقوالب اللَّبِن لـبناء الجدران السميكة. كما استخدم الـطوب لبناء الموقد (بيت النار). أما الغرفة الساخنة فتتميز بسماكة جدرانها المبنية بالحجر لكي تتحمل ثقل مباني القبة أعلاها، حيث توجد مثلثات كروية في أركانها الأربعة تمهيداً لتحويل المربع إلى مـثمن لحمل القبـة. وتغطي

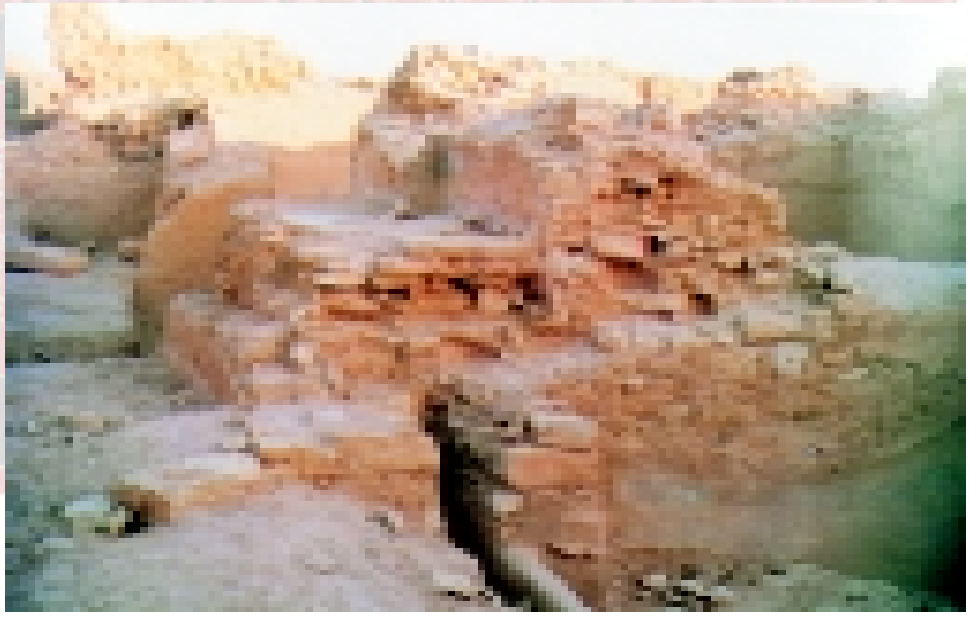

إحدى قنوات تصريف المياه في حي الطريف – الدرعية

واجهات الجدران لياسة جصية سميكة، وفي أعلى الجدران فتحات للتهوية والإضاءة على شكل مثلثات هرمية.

وتوضح الآثار المعمارية والمخطط العام أن حمام الطريف صمم على غرار الحمامات المشهورة في المدن الإسلامية المبكرة. فأمامه يمتد فناء مكشوف بمساحة ألف متر مربع محاط بسور بارتفاع ٤م، ويؤدي إلى المدخل الرئيسي للحمام. ويشتمل الحمام على غرفة الاستقبال، وغرفة خلع الملابس، والغرفة الساخنة، وفناء الحمام، ومكان لتخزين الأخشاب لوقود النار، وخلاف ذلك من المصاطب، والطاقات، والمغطس، والأحواض، إضافة إلى الأنابيب الموصلة للمياه وقناة التصريف.

ويزود الحمام بالمياه العذبة من البئر الواقعة على طرف الشعيب حيث تنقل المياه منها إلى الحمام على ظهور الدواب عبر طريق ممهد في الصخر الطبيعي.

ويبدو أن هذا الحمام كان مخصصاً لعلية القوم في حي الطريف الذي يقطنه الأمراء وكبار رجالات الدولة، وقد بني بجوار الحمام قصرٌ للضيافة يتكون من عدد من الغرف ومجلس ومرافق أخرى.

ومن هذا الاستعراض الموجز نخلص إلى أن الحمامات كانت معروفة في عدد من المدن التاريخية في المملكة، ولعل الاكتشافات الأثرية ستوضح لنا المزيد عن مثل هذا المرفق المهم في حياة المدينة الإسلامية.

العمارة الحربية

عرفت الجزيرة العربية أنماطاً من أنواع العمائر الحربية في العصور القديمة، مثل الآطام والقلاع والحصون والأبراج والأسوار والخنادق. وقد ورد ذكر بعض الحصون في المصادر التاريخية والجغرافية، مثل حصن غمدان والمشقر وحصن بني عبدالقيس. وفي العصر الإسلامي انتشرت القصور والحصون والقلاع في مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

الآطام والحصون والقلاع. واحد الآطام أُطُم، وهو الحصن المبنيّ بالحجارة. وقد بلغ عدد الآطام في المدينة المنورة عند هجرة الرسول ﷺ إليها ١٩٩ أطماً، نسب المؤرخون منها ١٢٧ أطماً إلى الأوس والخزرج و١١ أطماً للنازلين بها من العرب، و٥٩ أطماً لليهود اللاجئين إلى المدينة. كذلك أنشأ المسلمون آطاماً جديدة خاصة بهم. والأطم بناء مربع فوق مرتفع من الأرض مبني بالحجارة ويتكون من دورين أو أكثر، وربما زود بمصادر المياه كالقنوات

أطم قديم في موقع الحائط

والآبار. وقد خدمت هذه الآطام المسلمين في أوقات المحن عندما احتمى بها النساء والأطفال والعجزة، مثل ما حدث على وجه الخصوص في معركتي أحد والخندق.

وما تزال أطلال بعض الآطام باقية حتى اليوم على هيئة أكوام من الحجارة ترتفع لعدة أمتار، مثل أطم الضحيان الذي ابتناه أحيحة بن الجلاَح، وأطم أبي دجانة الساعدي الأنصاري، وآطام فدك التي تعرف الآن باسم الحائط.

كذلك اشتهرت بعض المدن المبكرة، قبل الإسلام وبعده، بتحصيناتها الدفاعية، مثل مدينتي تيماء ودومة الجندل اللتين مازالت بقايا أسوارهما شاخصة للعيان، وكذلك الأسوار التي كانت تحيط بالطائف وجرش. وبعض المدن كانت تحميها حصون مرتفعة فوق قمم الجبال. ومن أشهر الحصون ذات الطابع الأثري في المملكة الأبلق الفرد وهو قصر السموءل في تيماء، قال الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله
حصن حصين وجار غير ختار

بقيت آثار عدة حصون إسلامية في المملكة تعود إلى الفترة المبكرة، مثل:

قلعة الفرع في موقع العيص

حصن مارد في دومة الجندل، وحصن زعبل في مدينة سكاكا بالجوف، وقصر مارد في عين ابن فهيد بالأسياح بمنطقة القصيم، وقلعة الفرع في منطقة العيص. كما امتازت القصور في المحطات والمنازل والمدن الإسلامية المبكرة بأساليب تحصينية بسبب سماكة الجدران والأبراج التي تحمي الأسوار والبوابات. وتدل الشواهد الأثرية في حفريات الربذة وعلى امتداد درب زبيدة على ذلك.

وشيدت القلاع الكبيرة الضخمة في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، خاصة في الحجاز وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر وعسير وساحل الخليج العربي. وتعد قلعة الصعيدي الواقعة في كاف في شمال وادي السرحان من أهم وأكبر القلاع التي يعود تاريخ بنائها لعصور تسبق الإسلام، وقد جددت القلعة خلال العصور الإسلامية، وكان آخر بناء للقلعة قد تم عام ١٣٣٨هـ على يد نواف بن شعلان. وامتازت هذه القلاع بسماكة بنائها واشتمالها على أبراج دائرية ونصف دائرية وبوابات محكمة وفتحات للمراقبة والرماية، ومرافق للمؤن والعتاد وإقامة الجنود. وقد تطور بناء هذه القلاع مع الغزو

قلعة كاف شمال وادي السرحان

الصليبي والهجوم المغولي على الشرق الإسلامي، والمطامع الغربية، خاصة من البرتغاليين، ومحاولة السيطرة على سواحل الجزيرة العربية في البحر الأحمر والخليج العربي. وتطورت عمارة القلاع مع تطور صناعة الأسلحة، خاصة بعد استخدام البارود في الحروب وبداية تصنيع المدافع. وهناك عشرات القلاع التي نشاهدها اليوم على امتداد طريقي الحج الشامي والمصري أقيمت لحماية طرق الحج والمسافرين، وحماية المدن الساحلية والداخلية.

وقد بنيت تلك القلاع في عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وتعاقبت عليها أعمال الصيانة والترميم طوال الفترات التي كانت مستخدمة فيها. ويشاهد على بعضها نصوص تأسيسية مؤرخة، وتجمع القلاع المنشأة على طُرق الحج بين الوظيفة الدفاعية من جهة، كما تقوم مقام الخانات لإيواء الحجاج والمسافرين عند الحاجة من جهة أخرى. وتتوافر لتلك القلاع آبار المياه والبرك، وزود بعضها بمساجد خاصة بها.

ومن هذه القلاع على سبيل المثال قلعة المويلح التي أسست عام ٩٦٨هـ، وقلعة الأزنم أو الأزلم بين ضبا والوجه التي عرفت في العصر المملوكي وأعيد إصلاحها في عهد قانصوه الغوري سنة ٩١٦هـ، وقلعة الزريب أو قلعة الوجه المشيدة سنة ١٠٢٦هـ. وعلى طريق الحج الشامي عدد من القلاع منها قلعة تبوك بنيت سنة ٩٦٧هـ، والمعظم سنة ١٠٣١هـ، والحجر بنيت في الفترة ما بين ١١٥٦-١١٧٠هـ. ومن القلاع داخل المدن قلعة أجياد في مكة المكرمة، وبنيت في العصر العثماني.

قلعة أجياد بمكة المكرمة

في قلب الرياض يقف حصن المصمك الذي بناه الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بعد توليه الحكم سنة ١٢٨٢هـ. وفي الهفوف قصر إبراهيم، وفي تاروت قلعة ينسب بناؤها إلى الفترة البرتغالية. ومن القلاع المهمة قلعة قباء في المدينة المنورة وهي من العهد العثماني، ومن القلاع الساحلية المهمة قلعة ضبا التي بنيت في عهد الملك عبدالعزيز، يرحمه الله. وهناك قلاع أخرى كثيرة في منطقة عسير والحجاز وتهامة امتازت بوظيفتها الدفاعية لحماية المدن والقرى والمزارع، ويلجأ إليها السكان في أوقات الحروب والفتن، كما تستخدم أجزاء منها لحفظ الحبوب والمؤن. ويغلب على هذه

أحد واجهات حصن المصمك بالرياض

قلعة قباء –المدينة المنورة

القلاع طابعها المحلي المميز، وتسمى بالحصون أو القصبات، وتبنى إما بالطين أو بالحجارة أو بكليهما، وبعضها قد يرتفع إلى حوالي ٢٠م. ويعود بناء بعض حصون عسير إلى حوالي مائتي عام.

غير أن في المنطقة قلاعاً حربية تختلف في تصاميمها المعمارية عن الحصون والقصبات. ومن تلك القلاع قلعة الدقل شمال أبها، ويعود بناؤها إلى الفترة ما بين ١٣٢٢هـ و ١٣٣٧هـ وقلعة شعار الواقعة على رأس عقبة شعار، وبنيت ما بين ١٢٩٠هـ و ١٣٢٥هـ وقلعة المطلع، وقلعة البرج، وقلعة اللاسلكي بمدينة جازان، وفي أبي عريش قلعة أبي عريش المعروفة بدار النصر.

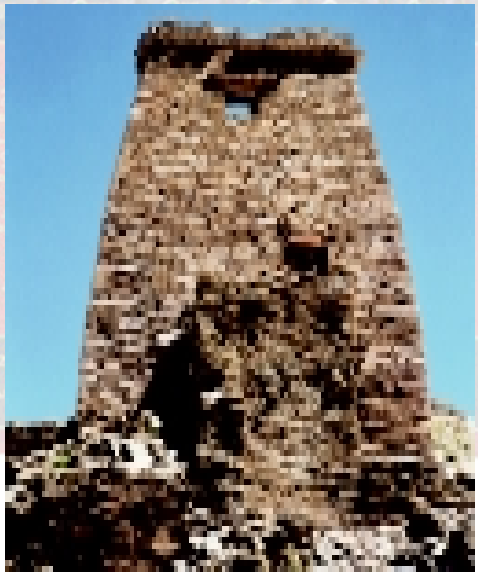

أحد حصون بيدة – الباحة

الأسوار والأبراج. ومن التحصينات الدفاعية المعروفة الأسوار والبوابات والأبراج. فقد كانت بعض المدن محاطة بأسوار دفاعية وأبراج للمراقبة والدفاع وبوابات منيعة، ومن أهم المدن المسورة في شمال الجزيرة العربية مدن تيماء ودومة الجندل ومدينة العلا. وتعد أسوار تيماء ودومة الجندل الممتدة لعدة كيلومترات، والتي تمتاز بحصانتها من أهم التحصينات التي وجدت في شمال الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الإسلام، واستمرت خلال العصور الإسلامية. وتوجد أبراج المراقبة في كل أنحاء الجزيرة العربية، ولكن مناطق عسير والباحة والقصيم والشرقية تمتاز بكثرة أبراج المراقبة فيها.

ومن أهم المدن التي كانت محاطة بأسوار دفاعية الهفوف والدرعية. ويعد سور الدرعية من أهم الآثار الدفاعية الباقية، إذ يمتد السور على شكل مستطيل حول المدينة بأحيائها المختلفة لمسافة تزيد على ١٢كم، ودعم السور بعدد من الأبراج يفصل بين البرج والآخر ما يقارب مائتي متر. ومن الأسوار المهمة أيضاً سور حي الطريف الذي يفصله عن الأحياء الأخرى في الدرعية، حيث كان هذا الحي يشتمل على المباني الحكومية وإصطبلات الخيل ومساكن الأمراء وغير ذلك من المرافق، وتغطي جدرانه طبقة من اللياسة الطينية. وفي بعض أجزاء الأسوار العلوية والأبراج تشيد الجدران باللِّبن، وتُجعل للأسوار ممرات دفاعية علوية محمية

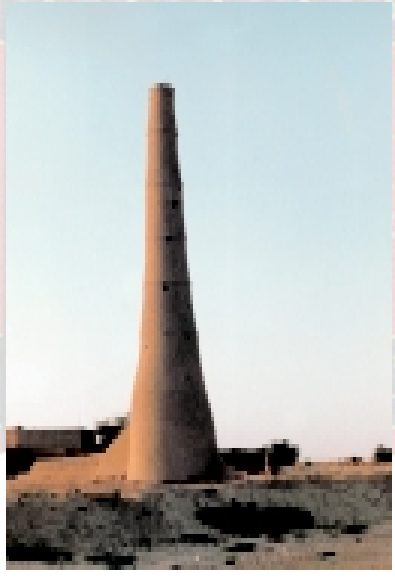

برج رُغَبَة بمنطقة الرياض

برج قلعة طوران بالقطيف

منظر عام للدرعية، ويشاهد في أعلى الصورة السور المحيط بها

بجدار يرتفع عن السور الأصلي ويسمى هذا الجدار الذروه، وفيه فتحات طولية للرماية والمراقبة. وتسمى هذه الفتحات المزاغل.

أما أبراج الأسوار فهي في الغالب إما دائرية أو مربعة، وتمتاز بسماكتها وارتفاعها حيث كان بعضها يستخدم أيضاً للمؤن والذخيرة.

ومن أشهر أبراج الدرعية برج سمحة المُطِلّ على وادي حنيفة، وبرج الرأس وبرج العلاجية وبرج حصن الغنوانة وبرج البريكي وغيرها.

وبالإضافة إلى التحصينات الدفاعية، فإنه يوجد خارج أسوار الدرعية وفي مواقع متفرقة أبراج عديدة للمراقبة.